وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية



مجلة الونشريس



للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التّاريخ
بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة - الجزائر



المجلد: 04، العدد: 02،
صفر 1447 هـ / جويلية 2025مـ

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة –الجزائر

مجلة الونشريس للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة.

إدارة المجلة

السنة الرابعة، المجلد الرابع، العدد 02، صفر 1447هـ/ جويلية 2025م

فهرس المجلد 04، العدد 02 – العدد التسلسلي 08

الافتتاحية:

تواصل مجلة الونشريس للدراسات التاريخية مسيرتها العلمية بإصدار العدد الثاني من المجلد الرابع (العدد التسلسلي الثامن) والذي احتوى مواضيع تاريخية ثرية ومتنوعة بأقلام باحثين من عدة جامعات جزائرية.

وإذ نسعى في مجلة الونشريس لترقية المجلة لتكون في مصاف المجلات الرائدة في حقل الدراسات التاريخية بالجزائر والوطن العربي فإننا نرحب دوما بالإسهامات الجادة للباحثين من الجزائر وخارجها لنشرها في الأعداد المقبلة.

كما لا يفوتنا أن نقدم جزيل الشكر لمختلف الهيئات العلمية والإدارية بمؤسستنا والتي تحرص دوما على مرافقتنا لترقية المجلة.

البعثات الاستكشافية الفرنسية في الصحراء الجزائرية خلال القرن 19 ودورها في التوسع الاستعماري في المنطقة – بعثة هنري دوفيري (Henri Duveyrier) أنموذجا ما بين (1857-1863)

French expeditions to the Algerian Sahara during the 19th century and their role in colonial expansion in the region - Henri Duveyrier's expedition (1857-1863) as a model

أد. فكاير عبد القادر *

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة– الجزائر

fkairaek@yahoo.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/04/18	2025/06/23	2025/07/31

الملخص:

تتناول هذه الدراسة بعثة هنري دوفيري إلى الصحراء الجزائرية التي وقعت ما بين (1857-1863)، والتي زار خلالها عدة مدن ومناطق في الصحراء الجزائرية .وقد اخترت أن أعالج في هذه الدراسة بعثة هنري دوفيري (Duveyrier Henri) الذي يعد من أبرز الرحالة الفرنسيين، لقيامه برحلات عديدة إلى بسكرة وغرداية والقليعة، وإلى غدامس، ومنها توجه إلى منطقة التاسيلي حيث يوجد طوارق الشمال ما بين(1857 - 1863)، حيث أقام بينهم لمدة سنة وتعلم لغتهم. وقد خلف عدة مؤلفات منها كتابه عنوانه "طوارق الشمال" الذي صدر سنة 1864، كتاب دراسات عن تونس (1881)، وكتاب آخر عن الصحراء الجزائرية والتونسية (1905). إن الهدف من هذه الدراسة هو تبيان مساعي فرنسا وراء إرسال بعثة دوفيري وغيرها من البعثات الاستكشافية التجسسية إلى منطقة الصحراء الجزائرية، وأهداف فرنسا من إدماج الصحراء الجزائرية ضمن منطقة الساحل الإفريقي التابعة للامبراطورية الفرنسية، والتي كانت في هذه الأثناء محل تنافس بين القوى الاستعمارية الكبرى وخاصة بين فرنسا بريطانيا. أما عن النتائج التي تم الوصول إليها أن هذه العملية الاستكشافية التي قام بها دوفيري جاءت بعد رحلات فرنسية

* المؤلف المرسل

سابقة في بداية القرن التاسع عشر، على أن أهم نتيجه يمكن ذكرها هي أن هذه الرحلة وغيرها رمت إلى دراسة السكان والطبيعة الجغرافية للمناطق الصحراوية وتحصيل مختلف المعلومات عن المنطقة لتكون أداة للسياسة الإستعمارية الفرنسية.

الكلمات المفتاحية: الصحراء الجزائرية؛ هنري دوفيري؛ التوسع الاستعماري الفرنسي؛ الرحلات الاستكشافة؛ القرن التاسع عشر.

Abstract:

This study deals with Henri Duveyrier's expedition to the Algerian Sahara, which took place between 1857 and 1863. During this trip, he visited several cities and regions in the Algerian Sahara, such as Biskra, Wadi Righ, Wadi Souf, Ouargla, Touggourt, and the Tuareg region. In this study, I have chosen to address in this study the Henri Duveyrier mission, which is one of the most prominent French travelers, because he made trips to many Algerian desert regions, including the Tasili region, where the residents of “northern Tuareg ” reside,Who stayed between them for a year and learned their language.He authored several books, including a book entitled "The Tuareg of the North," published in 1864, a book entitled "Studies on Tunisia" (1881), and another book on the Algerian and Tunisian Sahara (1905). The aim of this study is to demonstrate France's efforts behind sending Duveyrie's expedition and other exploratory and spy missions to the Algerian Sahara region, and France's goals in incorporating the Algerian Sahara into the Sahel region of the French Empire, which was at the time a subject of competition between the major colonial powers, particularly France and Britain.As for the results reached that this exploratory process came after previous French trips at the beginning of the nineteenth century, that the most important result can be that this trip and others threw the study of the population and the geographical nature of the desert regions and the collection of various information about the region to be a tool for French colonial policy.

Key words: Algerian Sahara; Henri Duveyre; French colonial expansion; exploratory voyages; 19th century**.**

مقدمة:

لقد بذلت السلطات الاستعمارية الفرنسية بعد مرور أكثر من نصف قرن من احتلالها للجزائر جهودا من أجل التوسع في المناطق الجنوبية الجزائرية ؛وهي منطقة الصحراء. وذلك عبر استمرارها في بعث المكتشفين إلى المنطقة قصد الحصول المعطيات الطبيعية والبشرية للمنطقة. ويعود اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية إلى ما قبل احتلالهم للجزائر سنة 1830، بداية من رحلة فردريك كايو (Frederic Cailliaud) خلال سنوات (1818-1822)، ورحلة روني كايي (René Caillié) خلال سنوات 1824-1828، الذي كان عازما على الدخول إلى تمبوكتو. وباعتبار الجزائر بوابة للصحراء وإفريقيا الداخلية، زاد تصميم الفرنسيين على احتلالها، فتم افتعال الذرائع وتم غزوها في سنة 1830. لكن الثورات التي واجهوها في الشمال عرقلت تقدمهم نحو احتلال الصحراء، ونظرا لأهمية الجزائر بالنسبة إلى فرنسا من حيث عمقها الصحراوي، ودت فرنسا إلى ربط مستعمراتها في القارة الإفريقية انطلاقا من الجزائر، وهذا ما جعلها ترسل البعثات الاستكشافية والتجسسية. ولذا سنسلط الضوء في هذا العرض على بعثة هنري دوفيري (Duveyrier Henri) الذي يعد من أهم الرحالة الفرنسيين الذين تنقلوا بين العديد من المناطق الصحراوية الجزائرية خلال الفترة ما بين (1857 - 1863). وننطلق في دراسة هذا الموضوع بناء على إشكالية تتمثل صيغتها في: " **رحلات هنري دوفيري إلى الصحراء الجزائرية دوافعها مسارها وغاياتها**". يستدعي معالجة هذه الإشكالية الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي بواعث رحلات هنري دوفيري إلى الصحراء الجزائرية، ما هي المناطق التي زارها؟ ما هي أهم النتائج التي ترتب عن رحلاته؟ إن الهدف من هذا البحث هو إعطاء نظرة على المناطق التي زارها دوفيري والمسارات التي سلكها للوصول العديد من المدن والمناطق الصحراوية الجزائرية وتتمثل في: بسكرة ووادي ريغ، ووادي سوف، ورقلة ، توغرت، و ختم زيارته إلى منطقة الهغار. كما امتدت رحلته إلى بعض المناطق من

الأراضي التونسية والليبية. أما عن منهجية الدراسة فتتمثل في البداية وضع نبذة عن حياة هنري دوفريري والوقوف على المواقف التي عاشها في حياته ما جعلته يلج إلى حياة الاستكشاف والمغامرة، وتتبع المناطق التي زارها في الصحراء الجزائرية، وتعاليقه عنها.

1- نبذة عن حياة هنري دوفيري (Duveyrier Henri):

ولد هنري دوفيرييه(Henri Duveyrier) في باريس، شارع لا تشوسيه دانتين(la Chaussée d'Antin)، في 28 فبراير 1840. كان والده، تشارلز كونستانت أونوريه دوفيرييه(Charles-Constant-Honoré Duveyrier) (1803-1866) رجلًا أديبًا، ومؤلفًا للأعمال السياسية والمسرحيات، وقد اجتهد في العمل، يتردد على سان سيمونيين(les saints-simoniens). وهو مقرب من بروسبر إنفانتان(Prosper Enfantin)، الأب الروحي للحركة، والذي رافقه في الجماعة التي تأسست في مينيلمونتان(Ménilmontant) عام 1828.

والدته، إلين كلير(Ellen-Clare)، المولودة ديني(Denie)، وهي انكليزية، وهو ما يفسر ورود الاسم الأول لابنها الذي هو مكتوبًا إما هنري(Henri) أو هنري(Henry). يصفها زوجها بأنها "امرأة صغيرة رقيقة، إنكليزية، وكاثوليكية تقية للغاية". توفيت إلين دوفيرييه(Ellen Duveyrier) قبل الأوان بسبب مرض السل، في باسي(Passy) (أوت دو سين) (Hauts-de-Seine) بالضواحي الغربية لباريس، في 4 يونيو 1854، تاركة زوجها مع أطفالهما الثلاثة، هنري، الأكبر، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر عامًا، وبيير، أصغرها بعمر ثلاث سنوات. وماري من مواليد 1849[1].

بعد ثلاثة أشهر من وفاة زوجته، قرر تشارلز دوفيرييه إرسال ابنه الأكبر لمواصلة دراسته في ألمانيا. ليس لديه الكثير من الثروة ويريد أن يرى طفله يجد وظيفة في أسرع وقت ممكن. اختار له كلية في بافاريا(Bavaria)، في لوتراخ(Lautrach) في الجنوب الألماني، حيث

مكث هنري لمدة عام تعلم خلالها اللغة الألمانية. لقد أبهره علم اللغة أيضًا، وفي العام التالي، بعد أن ترك لوتراخ اتجه إلى كلية إدارة الأعمال في لايبزيغ(Leipzig)، التي بقي فيها من نهاية عام 1855 إلى بداية عام 1857. وخلال هذه الفترة، أثناء التحاقه بالمدرسة، تلقى دروسًا في اللغة العربية على يد المستشرق الدكتور فلايشر(Fleischer)[2].

لم يكن قد بلغ السادسة عشرة من عمره بعد، ووفقًا لمعلومات سيرته الذاتية المكتوبة كان قد تصور مشروعا لاستكشاف جزء غير معروف من القارة الأفريقية[3]. ولما عاد إلى باريس، فكر بجدية في القيام برحلة استكشافية أولى، وكان قد أتقن مهاراته في علم المعادن وعلم النبات وعلم الحيوان.لقد تبنى تشارلز دوفيرييه على نطاق واسع المشاريع التي شكلها ابنه لدرجة أنه وضعه على الفور في وضع يسمح له بالبدء في الاستعداد لتحقيقها، على الرغم من أنه كان يرغب في توجيه ابنه نحو التجارة والأعمال. كما تم شراء كافة الوسائل اللازمة[4].

وفي عام 1857، دعاه صديق والده الذي كان يعيش في الجزائر، الدكتور أوغست وارنييه (Dr. Auguste Warnier)، للانضمام إليه هناك. حصل هنري دوفيرييه على موافقة والده وانطلق إلى مرسيليا في 23 فبراير 1857[5]. ومنها انطلق إلى الجزائر التي وصلها 26 فبراير، بدأ رحلته إلى القندوري(Kandouri)، على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا غرب الجزائر العاصمة، الواقعة على مسافة ليست بعيدة عن بحيرة حلولة. كانت منطقة القندوري مقر إقامة دكتور وارنييه، والذي كان له فيما بعد تأثير كبير على حياة هنري دوفيرييه وعمله.

وفي 8 مارس، خرج في رحلة نحو الجلفة والأغواط، برفقة أوسكار ماك كارثي(Oscar Mac-Carthy)[6]، وصل هنري دوفيري والجغرافي الشهير إلى الأغواط في 24 مارس 1857، بعد توقف عند ضريح مرابط سيدي مخلوف. وفي الأغواط التقى برجل تارجي(Targui) يدعى محمد أحمد أرسله إخنوخن(Ikhenoukhen)،

والذي كانت تربطه به علاقات ممتازة. وربما كان هذا هو السبب وراء الاستعداد الذي حدد رحلة هنري دوفيري إلى الطوارق. على الرغم من الأغواط تقع على بعد 400 كيلومتر جنوب الجزائر العاصمة، إلا أنها لم تحتلها فرنسا إلا قبل خمس سنوات (1852) . وفي منتصف أبريل عاد عبر بوزيد وقائد جلول.

بعد رحلته التجريبية، نشر دوفيري، في "مجلة الجمعية الشرقية الألمانية" الصادرة في برلين"، (Zeitschrift der deutscken morgenländischen Gesellschaft)، مذكرة عن أربع قبائل جزائرية هي: بني مناصر، والزواوة، والمزابيين، والطوارق أزججر(Touareg Azdjer)، عنوانها "ملاحظات عن أربعة قبائل بربرية، تم جمعها خلال رحلة في الجزائر إلى بحيرة حلولة وإلى الأغواط في فبراير ومارس وأبريل 1857"[7].

خلال رحلتة إلى لندن، حيث يعيش فرع من عائلته، وهناك اتصل بهنري بارث(Henrich Barth)[8] الذي كان مشغولًا آنذاك بكتابة تقرير عن رحلاته. وتحدث معه عن عزمه على القيام برحلة في الصحراء الكبرى، فزوده بارت بالنصائح ومن ثم توثقت العلاقة بينهما، يقول دوفرييه غداة وفاة بارت: «إن بارث، رسائله المليئة بالنصائح الودية والإشارات الثمينة، قد سهر من بعيد على نجاح محاولتي، فاتحاً لي وجهات نظر جديدة، منبهاً إياي إلى وقائع بالغة الأهمية لفتت انتباهي. وبعث إليّ برسالة مكتوبة باللغة العربية وموجهة إلى أصدقائه في الصحراء الكبرى والسودان، لكي يقدموا لي يد المساعدة عند الحاجة» [9].

وبعد عودته من إنكلترا في منتصف عام 1857، عزم هنري دوفيرييه على القيام برحلة استكشافية إلى قلب الصحراء. وهكذا أمضى دوفرييه الثلاثين سنة الأخيرة من حياته في باريس، مقيماً بمنزله في سيفر(Sèvres)، يجتر أحلامه في القيام برحلات استكشافية جديدة في بلاد الطوارق وفي قلب الصحراء الكبرى، دون أن يستجيب لهذه الأحلام أحد

في الجهات الحكومية الفرنسية، خصوصاً بعد زوال حكم نابليون الثالث في سنة 1870 بعد هزيمة فرنسا على يد ألمانيا، وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة(10).

وكانت نهاية هنري دوفيرييه عن طريق الانتحار، هذا الرحالة والجغرافي الذي حصل على وسام جوقة الشرف وهو في الحادية والعشرين من عمره، ذاق المجد ثم النقد والإقصاء. بعد أن أسيء فهمه من قبل السياسيين، ونُسي ظلماً، غرق في الكآبة وانتهى به الأمر بإطلاق النار على رأسه وهو في الثانية والخمسين من عمره، كان ذلك في سنة 1892. وقد نعتت صحيفة (Journal_des_débats...) الصادرة في باريس، في عددها الصادر يوم 14 mai 1892 . بمقال مطول ذكرت فيه سيرة والنشاط الكشفي لهنري دوفيرييه Journal_des_débats_politiques_et littéraires,

2- رحلات دوفيرييه إلى الحواضر الصحراية الجزائرية الأهداف والمسار :

افتتح دوفيرييه أهداف رحلته إلى الجزائر في كتابه "طوارق الشمال" الصادر في عام 1864، بقوله: « إن رحلة الاستكشاف التي قمت بها بين الغليعة غربا، وزويلة شرقا، وبسكرة شمالا، والغات جنوبا، كان لها هدف ثلاثي يتمثل في جمع بيانات جغرافية عن الصحراء كانت مفقودة وفتح علاقات أساسية مع شعوب هذه المنطقة الوسيطة قبل إقامة علاقات سياسية وتجارية بين الجزائر وإفريقيا الوسطى؛ وأخيرًا، أن أجهز نفسي، من خلال تجربة طويلة في الحياة الإفريقية من خلال دراسة الرجال والعادات واللهجات، لرحلة ثانية يكون هدفها الأكثر خصوصية هو استكشاف المناطق السودانية » (11).

في 8 ماي 1859، نزل الرحالة الفرنسي هنري دوفيرييه في سن 19 سنة، في مدينة سكيكدة، هذه المحطة البحرية القديمة في شرق الجزائر، والتي أصبحت يطلق عليها اسم ميناء قسنطينة. واتجه جنوبًا على الفور للوصول إلى الميدان المتوقع لعملياته في أسرع وقت ممكن. فعبر قسنطينة، وقطع الهضبة، ولامس آثار لامبيز وعبر مضيق جبل الأوراس، المتميز

بكتلته العالية على الشرق الجزائري، ومن هناك انحدر إلى بسكرة، التي تقع على هذا الجانب، بوابة الصحراء. هذا هو المكان الذي بدأ فيه العمل نشاطه[12].

غادر بسكرة يوم 13 جوان متوجها إلى القرارة إحدى مدن الميزاب بعد مسيرة خمسة أيام. وفي 21 جوان دخل إلى غرداية ومنها توجه إلى متليلي على أمل الالتقاء ببعض الطوارق للحصول على مساعدتهم من أجل الدخول إلى بلادهم. وفي 28 أوت غادر متليلي متوجها إلى المنيعة التي وصلها في فاتح سبتمبر، غير أن سكان المدينة احتجزوه، ثم طلب منه مغادرة المدينة، فتوجه إلى الأغواط. وفي نوقمبر 1859 غادر الأغواط متوجها إلى القرارة ثم وصل إلى تقرت ومنها اتجه إلى بسكرة وأخيرا وصل إلى قسنطينة ليستريح بعض الوقت[13].

وبداية من أول فيفري 1860 واصل دوفيرييه رحلاته فزار خلال هذه الجولة عدة مدن صحراوية وهي بسكرة، وادي ريغ، وادي سوف، ورقلة ، توغرت، ثم إلى الجريد في الجنوب التونسي، فزار قابس وقبيلي(Kebilli) ونفزاوة(Nefzaoua)، ثم اتجه شمالا نحو قفصة وتوزر. وفي 3 أفريل قرر العودة إلى بسكرة مرورا بالشبيكة (Chebeka) وتامغزا (Tamerza)، ثم اتجه غربا نحو بسكرة التي دخلها يوم 10 أفريل 1860[14].

2-1- رحلته إلى بسكرة 1860:

خلال زيارته للمدينة التي وصفها بالمستعمرة الصغيرة وضع قائمة للقبائل التي كانت تقطنها وعددها 26 قبيلة، وذكر أنه سيتولى إكمالها لاحقا. والملاحظ أنه فهم لغات هذه القبائل باستثناء ثلاثة فقط وهي قبائل دورا، وكانيمبو، ومانغا[15].

ووضع وصفا لطبيعة مساكنهم فذكر أن هؤلاء الزنوج يقيمون في قرية صغيرة من الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل، تقع في المزارع بالقرب من بسكرة الجديدة، كما وصف ألبسة هؤلاء السكان فقال: « ترتدي النساء أزياء بلادهن، بينما يختار الرجال، من أزياء جميع الشعوب التي يتواصلون معها، كل ما يمكنهم الحصول عليه من الزينة والخرق

ذات الألوان المبهرجة» [16]. وخلال تجوله في وادي بسكرة وصف تربته ومياهه والكائنات الحية الموجودة فيه مثل الأصداف والرخويات[17]، ثم تحدث عن كيفية قضائه الفترة الصباحية من يومه والفترة المسائية، بمراقبة طلوع الشمس ومقارنته بباريس، ورؤيته لأشجار النخيل العالية بالقرب من مدينة بسكرة، وكانت هدفه من ذلك هو« إظهار كيفية العمل لهؤلاء السادة».وصف بعد ذلك زيارته لحمام الصالحين.فقال أن « الحمامات محاطة بمبنى، مع غرف لراحة السباحين، المياه مالحة ولها أيضًا رائحة قوية من كبريتيد الهيدروجين، كانت درجة حرارة الماء على حافة البركة» [18].

أفصح دوفيرييه عن سبب هذه الرحلة وهي رغبته في « الحصول على الأسماك التي تعيش في الساقية والتي تخرج من المنبع، والتي لا تزال تحتفظ بدرجة حرارتها العالية لفترة طويلة، بل وأكثر من ذلك بالأملاح المشبعة بها. هذه الأسماك، التي تمكنت من الحصول على بعض العينات منها، تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في المياه الاردوازية لوادي ريغ؛ إنهم يعيشون في الماء الذي يمكن أن تصل درجة حرارته إلى 30 درجة. — في نفس الساقية ينمو نبات فلكي(Acotylédone)، بأوراق خيطية دقيقة جدًا، وهو نفس النبات، على ما أعتقد، وهو شائع جدًا في ساقية توغورت» [19].

وفي طريق عودته من منبع الحمام سجل قائمة للنباتات التي أثارت انتباهه وهي باجول(Bageul)، الرمث (remeth)، كلخا (kelkha)، ملحشنان (methennân)، رهارديج (rhardeg)، السدرة (sedra)، قندول (gandoul) ويدعى كذلك بو شوشة(bou choucha). وتحدث بعد ذلك عن المدرسة العربية الفرنسية ببسكرة التي كان يديرها ضابط صف سابق يدعى كولومبو(Colombo) فقال عنها:« إنها مدرسة يتعلم فيها الشباب العربي اللغة الفرنسية ومبادئ علومنا. تحظى هذه المدرسة بحضور جيد إلى حد ما، وقد تمكنت من رؤية التقدم المثير للاهتمام الذي أحرزه طلاب السيد كولومبو. وسيدهم ضليع في علم العربية، ويزداد علمه كل يوم بالدراسة

الجادة. راتبه 1800 فرنك. سنويا؛ لديه مساعد، عربي من قسنطينة، تلميذ للسيد شربونو(Cherbonneau)، وأعتقد أنه يتقاضى راتبا قدره 100 فرنك. سنويا »[20].

2- 2- رحلته إلى وادي ريغ:

وفي أول فيفري 1860 غادر دوفيرييه مدينة بسكرة متوجا وادي ريغ ومنها مر على عدة مناطق نذكر منها برج طاير- راسو حيث استقبله القائد سي خالد وقدم له أكلة البربوشة، ثم غادر على الفور للوصول إلى الشغة (Chegga) قبل حلول الظلام، لكنه وصلها بعد غروب الشمس. وأشار إلى أنه في الطريق، صادفت خمسة أو ستة آثار صغيرة على شكل أهرامات ومقبرة، كلها مجمعة معًا في مساحة بضعة أمتار مربعة؛ وهو نصب تذكاري أقامه أولاد موليت (Oulad Moulet) لتخليد ذكرى الهزيمة التي ألحقها بهم الشريف في هذا المكان[21].

وفي اليوم الموالي 2 فيفري غادر المكان وصل في وقت مبكر جدًا إلى أم التيور(Oumm-et-tiour). وهي قرية عربية صغيرة أنشأها الفرنسيون تضم اليوم 28 منزلاً مأهولاً ومسجداً مميزاً بمئذنته الجميلة. هناك عدة مئات من أشجار النخيل التي يتراوح عمرها بين عامين وثلاثة أعوام، وبالتالي ستؤتي ثمارها في العام المقبل. واعتقد دوفيرييه أن معظم السكان من قبيلة بني سليم. ثم تحدث عن الشغة، التي توجد بها حوالي خمسة عشر منزلاً فقط على الأكثر، مع احتساب تلك التي تشغلها الحدادات والموظفين، وما إلى ذلك. ولا يوجد في الشغة أشجار النخيل، وهذه هي السنة الأولى التي يزرعون فيها[22].

وفي اليوم الموالي 3 فيفري ذهب إلى المغير (Merhaier)، أول واحة في واد ريغ، من جهة الشمال. وهنك أخبره شيخها أنه يمكنه المغادرة في اليوم التالي في أي وقت يناسبه، في اتجاه وادي سوف، برفقة خمسة رجال سيرًا على الأقدام كمرافقين ومرشد على ظهور الخيل. ووصف بلدة المغير فقال أن مزارع النخيل بها، التي تسقى بالينابيع الارتوازية(artésiennes)، فقيرة جدًا في المنتجات النباتية، على الأقل هذا الموسم. بل

إن أشجار الفاكهة نادرة جدًا هناك؛ بالكاد يمكنك رؤية شجرة تين أو شجرة خوخ ضالة هناك، ومياه الخنادق تكثر فيها الضفادع[23].ثم ذهب إلى وصف سكان المنطقة المعروفين باسم الرواغة (Les Rouâgha)، فقال أنهم « يتميزون ببنيتهم البدنية وخاصة ببشرتهم، وهي قريبة جدًا من النوع الزنجي. وبعضهم أكثر سوادًا من شعب الهوسا الشمالي مثل مادجا(Madja)، وما إلى ذلك. النساء يرتدين اللون الأزرق. ولا يضعن شيئًا على رؤوسهن سوى ملابسهم أو حايكًا ... يبدو لي أن النساء يتمتعن بالحرية التي يحق لهن التمتع بها » [24].

2-3- رحلته إلى وادي سوف:

وفي يوم 4 فيفري انطلق إلى وادي سوف، فاتجه نحو وادي الخروف (l'Oued-el-Khorouf)، ثم توقف عند عين الدويرة (Ain ed Daouira)، وهي بركة دائرية صغيرة تشغلها القصب والنباتات المائية الأخرى. حيث قام بتخزين المياه العذبة، وعبر وادي الخروف [25]. ثم اقترب من شط ملغيغ، وبعده مر على خطوط الكثبان الرملية إلى أن وصل إلى قمة كثبان في سيف بو دلال (Sif bou Delal) ، ثم بلغ كثبان القصابية. وفي هذه العزلة لاحظ دوفيرييه آثار أقدام الغزلان والأرانب البرية والجربوع والجرد. كما ذكر أن هذه المنطقة الرملية تحتوي على بعض النباتات من أهمها أليندا (àlenda) و درين (drin)، و أرتا (arta) ودومران(dhomran) و الحرمل(harmel). وتعرضت القافلة إلى هبوب الرياح بشكل عنيف، فجرفت الرمال وزادت من صعوبة الرحلة في هذا المنطقة المهجورة[26]. وعلى الرغم من الإرهاق الشديد، واصل سيره إلى الكثبان الرملية الأولى في Medjigger، التي تتميز بأنها أكثر ارتفاعا، والتي تحتوي على الآبار التي تحمل نفس الإسم [27].

وفي 7 فيفري وصل إلى ضواحي وادي سوي ومنها مدينة قمار(Guemâr)، فبدأ بوصف حالة الزراعة في هذه المدينة قائلا:« أن نخيل قمار منتشرة في كتل صغيرة في فجوات

الكثبان الرملية. ... يتم بناء العديد من الآبار المائلة (باللغة العربية خالتارا en arabe Khaltâra) بالقرب من أشجار النخيل لتسهيل الري. في فصل الصيف يتم سقيها مرتين في اليوم صباحًا ومساءً. وفي الشتاء، أعتقد أن السقي يتم لمرة واحدة فقط. حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، يغادر العمال وسط ضجيج كبير ويتوجهون إلى أشجار النخيل للعمل على إزالة الرمال من حول الجذوع، لأن الرمال تتعدى باستمرار حدود المزارع. ويختارون القيام بذلك ليلا، حتى في فصل الشتاء، لتجنب حرارة النهار. ورغم هذه العناية؛ إلا أن الرمال تدفن العديد من أشجار النخيل التي يمكن رؤية جذوعها العارية والميتة» (28).

وعندما اقترب من قمار، ودخل سهلًا مستويًا بلا رمال قال: « أصبحت الآبار أكثر تواترا. لاحظنا وجود حدائق صغيرة مربعة الشكل محاطة بسياج من أغصان النخيل، وتحتوي جميعها تقريبًا على بئر مائلة، لقد رأينا بشكل رئيسي محاصيل التبغ هناك» (29).

وعندما دخل إلى مدينة غمار استقبله بعض شيوخها ومنهم القاضي الذي وصفه بأنه:« رجل مثقف ومتحضر، أعطاني معلومات تاريخية جيدة، ووعدني بأن يعطيني نسخة من كتاب للشيخ العدواني، وسيرسله لي في بسكرة».ونزل في بيت أحد الشيوخ اسمه عبد القادر، في السبعين من عمره(30).

ووضع دوفيريي وصفا لعمران المدينة فقال: « هي مدينة يبلغ عدد سكانها حوالي 4000 نسمة. يبلغ ارتفاع المنازل تقريبًا ارتفاع الإنسان وهي ذات مظهر هزيل. لكن يجب أن تكون صلبة، مبنية من الحجارة والجير. الأسطح التي تعلوها قباب صغيرة لها تأثير أصلي. جدران المنازل ليست مجصصة أو مستوية، ولكن كل شيء يبدو أبيض. هناك عدد قليل جدًا من المنازل معًا. يوجد في المدينة سوق صغير وعدد قليل من المحلات التجارية والعديد من المساجد، بما في ذلك الزاوية التي تعتبر أجمل المعالم الأثرية في قمار». ثم وضع وصفا لسكانها فقال:« أعتقد أن سكان قمار هم عرق مسالم ومجتهد. ويغطون رؤوسهم بحايك بسيط أو بعمامة بيضاء صغيرة. حبال شعر الجمل ليست عادية. وللنساء نوع

منفصل ليس من العرب الرحل ولا من نساء وادي ريغ. بدا لي أن الرجال لديهم ملامح تشبه بني ميزاب، وهذا ما تفسره المعطيات التاريخية التي سأقدمها»(31). أما عن قبائل قمار فهي: أولاد بوعافي، أولاد عبد القادر، أولاد عبد الصادق مع قبيلة أولاد موسى الصغيرة، إخوانهم أولاد هويمن(Ouled-Hôwimen). هذه القبائل الأربع لكل منها زعيمها(32). أما أولاد حميد هم أول العرب الذين استقروا في واد سوف، وكانوا من قريش، وخرجوا من سوريا في زمن سيدنا عثمان بن عفان (33).

أما العرب الذين يطلق عليهم "الطرود" (Toroud)(34) جاءوا واستقروا في وادي سوف. قال ابن خلدون « ومن بني فهم بن عمرو فيما ذكر البيهقي بنو طرود بن سعد بن فهم بطن متسع كانوا بأرض نجد، وكان منهم الأعشى (الشاعر الجاهلي المشهور)، وليس منهم الآن بها أحد، وبإفريقية – يقصد تونس وشرق الجزائر – لهذا العهد حي يظعنون مع سليم ورياح، وانقضى الكلام في بني عمروبن قيس» .

وذكر دوفيريي أن أول سكان سوف كان العبادية (Abadiâ). وكان لدى زناتة مدينة هناك، وهي أميتش(Amich). وقبل مغادرته لمدينة غمار أخذ خريطة تقريبية للمدينة، ثم وصل سريعا إلى بلدة ترهزوت(Tarhzout)، وهي أصغر بكثير. ثم توجه إلى كوينين(Kouinin) فذكر أنها تكون بطول ترهزوت أو أكبر قليلاً. ولاحظ وهو في الطريق بين غمار والوادي، وجود كتل من أشجار النخيل المنتشرة في الفجوات بين الكثبان الرملية، ووجود عدد لا بأس به من الآبار وعدد قليل من قطع الأراضي الزراعية(35). وذكر الرحالة أن شيخ وادي سوف الذي كان يلقب بـ"الخليفة" قد لقيه ما بين كوينين والوادي وأضاف: « كان ومعه ثلاثة فرسان،امتطيت أحد خيوله، وهو مرح بعض الشيء، وسرعان ما وصلنا إلى الوادي» (36) ، كان ذلك يوم 8 فيفري.

قضى يومي 9 و 10 فيفري في وادي سوف، وذكر بعض الأوصاف للمدينة، فبدأ بذكر عدد سكانها حوالي 6000 نسمة. وعن نظام عمرانها قال:« هي ذات بناء مئذنة

عالية وبرج للخليفة. تتكون المنازل في معظمها من فناء نصبت فيه خيمة، ويحتوي أيضًا على كوخ أو سقيفة مصنوعة من سعف النخيل. تعيش عائلة أولاد حامد في حي منفصل قليلاً، شرق برج خليفة. إلى جانب سكان المدينة، لا يزال الوادي يضم عددًا صغيرًا من خيم بدو الحرازلية(Harazlia) والنوايل (Nouail) [37]». وخصص وصفا لبرج الخليفة فقال: « تم بناء برج الخليفة حسب تصميم الكابتن لانجلوا(Langlois). وهو مربع محمي من الشرق والغرب (من زاويتين فقط) بحصن مربع، يضم أحدهما السجن، وهو من أجمل بيت في المدينة» [38]. وتحدث عن الملابس فقال هي نفسها كما في بقية سوف. أما عن الزنزج فذكر أمن نادرا ما يرى الزنوج بعضهم البعض. أما عن اليهود فقال أن عددهم سبعة وأربعون، موزعين على أحد عشر بيتاً.إنهم يصنعون اليانسون جيدًا(anisette)[39] .

وحسب دوفيريي أن وادي سوف منفتحة على محيطها من المناطق المجاورة فقال:« هناك اتصالات متكررة هنا مع البلدان الأجنبية، غدامس، نفزاوة والجريد، وتونس نفسها. ويوجد أيضًا بعض التجار من غدامس والعديد من التجار من الجريد» [40].

وتحدث نظام الأسعار لبعض المواد في وادي سوف. أما السلع القطنية الإنجليزية التي تحمل اسم جون روز(John Rose) والتي تأتي من تونس فتباع بـ 15 فرنكا. للقطعة ذات 75 ذراع[41] (41). يباع مسك مكة القادم من الهند على الأقل بـ 1 فرنك. للوزنة[42]، عادة ما يكون سعره أكثر. اشترى حايك جيريدي مقابل 47 فرنكًا ونصف. ولاحظ أن الدجاج رخيص، فقد اشترى سبعة دجاجات بسعر 1 فرنك، كما حصل على 18 بيضة مقابل 50 سنتا. وقبل مغادرته وادي يوم 11 فيفري ذكر أن الخليفة لا يريد أن يسمح له بالرحيل دون أن يعطيه برتقالاً من تونس وبيضة نعامة[43].

2- 4- رحلته إلى مدينة ورقلة:

في طريقه إلى مدينة ورقلة مر عبر عدة مناطق: فقال: « بعد مغادرة الوادي، سلكنا طريق تيماسين(Temassin) حتى وصلنا إلى البئر الواقعة في منخفض الحوض التونسي.

الكثبان الرملية التي يتعين علينا عبورها، هي أعلى الكثبان الرملية التي رأيتها في هذا الجزء من الصحراء، خالية من النباتات». ثم واصل الحديث فقال: « عبرنا سلسلة من المناطق ذات الكثبان المنخفضة والوديان». أما عن الغطاء النباتي فذكر بعضا منها هي: العزال(ezal)، المرخ(markh)، العربية(arabia)، واللبين(le lebin) [44].

وفي الطريق التقى برجلين من الطوارق عند أحد الآبار كانا في طريقهما إلى وادي سوف لشراء الحبوب، وأخبروه عن التوتر السائد بين قبيلتي أولاد عمار والشعانبة فقال:« أخبرونا أنه بالأمس أو أول أمس، تشاجر أولاد عمار (وادي ريغ) مع الشعانبة في ورقلة، بسبب جمالهم. قُتل أحد أفراد قبيلة الشعانبة، وهو رجل بارز. القبيلتان على وشك مهاجمة بعضهما البعض». ثم تحدث عن رؤيته لآثار حيوان مفترس صغير يسميه مرشدوه سيفتشي (sefchi)، والذي يصورونه باللونين الأبيض والأسود. وفي إحدى المناطق وهو في الطريق لاحظ الغطاء النباتي، والذي يتكون من الباجيل(bageul)، والدمران(dhomràn)، والزيتا(zeita)، والدرين(drin)، والسفار(sefâr)[45]. ولما وصل إلى وادي سيده(Oued-Sidah)، الذي يقع في منطقة بسيطة خالية من الرمال، ليس له انحدار منتظم[46]. وبعد ذلك التقى بمسافرين قادمين من ورقلة ومعهما جملان، وأخبراه أن المدينة تقع على بعد أقل مما كان يتصور، وقالا له أنه سيصل إليها بسهولة غدًا[47].

وخلال مواصلته السير دخل إلى حوض محاط بالمرتفعات من كل جانب، وبعد عبوره توقف لتناول الغداء في مكان يدعى البنيب(El-Benib). وكما ذكر من هنا تبدأ أرض الحمادة، التي تتميز بطبيعة نباتاتها النادرة والمتقزمة، والتي تقتصر على بضعة خصل صغيرة من الباغيل(bâguel) والسفار(sefâr)، وتربتها ناعمة رغم أنها رملية جزئيًا. ثم تابع السير على مسافة معينة، ذات نطاقات المرتفعات التي كانت على اليسار وتوقف في مكان على شكل سهل يسمى صحن الرمادة.(Sahan-er-Remâda). واصل طريقه على الحمادة، ثم دخل إلى منطقة مسطحة ذات تربة صلبة ونباتات الباغيل الهزيلة. وبعد

سيره لفترة طويلة في هذه المنطقة، انتهى في نهاية اليوم، برؤية سلسلة من الكثبان العالية التي اضطر إلى الالتفاف حولها، وبعد عبوره في مكان سهل، وجد على اليمين واحة صغيرة من أشجار النخيل، وهنا دخل إلى حوض ورقلة[48].

واصل سيره لمسافة طويلة في منطقة خالية من النباتات، ثم وصل إلى نخيل عين البيضاء(Ain Beidha) حيث مشى من خلالها لبعض الوقت، وكانت على يمينه واحة عجاجة (Ajâja) الطويلة. ثم قطع السبخة التي تحيط بورقلة، وانعطف على طول أشجار النخيل بالمدينة، وأخيرا دخل إلى مدينة ورقلة عبر باب السلطان عند غروب الشمس مع نداء المؤذنون لصلاة المغرب [49] .

وقد استبطأ دوفيريي قدوم قادة المدينة لاستقباله حيث قال: « لقد استغرقوا وقتًا طويلاً للقدوم لمقابلتي، وقرأت توبيخًا خطيرًا لقادة المدينة، الذين كانت علاقاتي بهم باردة جدًا خلال الإقامة القصيرة التي أمضيتها في ورقلة». أما عن إقامته فذكر أنه حصل على منزل في شارع تابع للميزابيين، وهو مبنى كبير، صالحًا للسكن للغاية ومناسب تمامًا لاحتياجات عائلة كبيرة من السكان الأصليين، كان ذلك يوم 17 فيفري 1860[50].

وخلال إقامته في مدينة ورقلة زار العديد من معالمها، فكما ذكر بدأ بزيارة السوق وقال: « كانت إدارته سيئة للغاية؛ ولم يكن به سوى القليل من اللحوم والحبوب للبيع، وكان البائعون هم الشعانبة وأشخاص من الوادي». ثم اتجه نحو القصبة، ذات المساحة الكبيرة التي تشغلها آثار قلعة السلاطين القديمة. وقد بدت له القصبة وكأنها بلدة صغيرة منفصلة؛ وكان لها باب لا يزال قائما مثل أبواب المدينة. وكان توزيع الشقق ضيقاً للغاية، وبأعداد كبيرة منها، لكنها غير صالح للسكن.

أما عن عمران المدينة فذكر أن « شوارع ورقلة ضيقة، تصطف على جانبيها منازل عالية مثل تلك الموجودة في واد مزاب، بأبواب تعلوها وتحيط بها تصاميم بدائية، مزينة أحيانا ببيضة نعامة. أخيرًا نقرأ نقوشًا صغيرة بأحرف ليست أنيقة جدًا، مثل "لا إله إلا الله" أو

"نصر من الله". تحتوي المدينة على العديد من الممرات المقببة، والتي توفر أماكن ممتعة للراحة أثناء حرارة النهار في الصيف». ثم تحدث عن وجود مسجدين قريبين من بعضهما البعض [51].

وعن التركيبة البشرية للمدينة قال أن المدينة تتقاسمها ثلاثة قبائل وهي بني سيسين(Béni Sisin) وبني إبراهيم(Béni Brahim) وبني واجين(Béni Ouaggin). إلى جانب ذلك تعيش مجموعة كبيرة من بني ميزاب بدائرة بني سيسين. هذا المجمع السكاني ذا أهمية تاريخية كبيرة [52]. وأضاف أن « سكان ورقلة ملونون أكثر من أسمر؛ أما الخماميس أو المزارعون فهم سود مثل زنوج الهوسا؛ أحيانًا يكون أصحاب الدماء النبيلة أكثر بياضًا، ولكن ليس دائمًا، لأنني رأيت بعضًا منهم يشبهون الزنوج تقريبًا. يتفق بني ورقلة أنفسهم على أن لونهم يأتي من العديد من النساء السود الذين أخذوهم في الماضي وما زالوا يأخذونهم الآن. وكانت مدينة ورقلة حسب ما قيل له أن القوافل تأتيها من الغات(Rhât) والغليعة (Goléâ) وعين صالح (Insâlah) [53].

وفي آخر يوم من وجوده بالمدينة ذكر أن سي زبير بو بكر، الأخ الأصغر لسي حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ سيد المنطقة[54]، كان قد فرض ضرائب غير عادية والعُشْرْ على كل منتوجات البلاد. وأكد أن هذه المساهمات المختلفة كانت لحسابه الخاص، وهذا ما تسبب هجرة عدة عائلات من ورقلة إلى تونس[55].

2- 5- رحلته إلى توغرت:

غادر دوفيريي مدينة ورقلة في وقت متأخر من صباح يوم 19 فيفير1860، وبعد عبوره السبخة، التي كانت أصغر حجمًا وأقل تصميمًا، ثم اتجه عبر سهل غير مستوٍ قليلاً، به نباتات زيلا(zeila)، وسلك على مسافة ما بين 4 أو 6 كيلومترات، درعا كبيرا الذي يؤدي إلى النقوسة(Negousa). وخلال عبوره أصبحت الأرض مستوية وتوقف الغطاء النباتي بالكامل تقريبًا. وعند وصوله إلى النقوسة، أعلمه القائد، ابن آخر سلطان والسلطان

نفسه، أن سجلات المدينة قد تم أخذها أثناء تدمير المدينة قبل خمس سنوات على يد محمد بن عبد الله. وقام بجولة في البلدة التي تحيطها بها الآثار. وتحتوي على أطلال لمسجد، لا يزال جزء كامل منه، بأعمدة عالية قائمًا. وعَبَرَ عددًا كبيرًا من الشوارع، كلها تقريبًا مدعومة بدعائم. وذكر أن قصبة المدينة كانت تجري بها عملية تحصيص الجدران. وتحتوي على عدة منازل يستخدمها القائد. وعلى كل فهي مصانة جيدًا ومناسبة لحجم المدينة[56].

ورأى من بعيد زاوية ذات مئذنة وقبة مطلية باللون الأبيض. وفي المساء،عزفت الموسيقى، التدرب على نوتتين على آلة الطبل لمدة ساعتين على الأقل.[57] وقد وجد شعانبيا الذي يعرف الصحراء بين ورقلة وعين صالح، والذي عرض عليه أن يأخذه إلى عين صالح مقابل 50 إلى 60 دورو(douros). مر على باطن (Baten) في هضبة تادمايت (Tademait)، ومن هناك، ذكر أنه بواسطة منظاره تمكن من رؤية زاوية مولاي هيبة (Heïba Moulai)، أول قرية في تيديكلت (Tidikelt)، التي لا تبعد سوى يومين[58].

لقد حظي بزيارة القائد، وسلم له الحليب والتمر ودجاجتين مرة أخرى. ثم غادر النقوسة، فشق طريقه عبر مساحة واسعة من الأرض الرملية فيها أشجار النخيل المعزولة والمزارع الصغيرة. ودخل بعد ذلك منطقة نبات الهيشة (heicha) أو خشب الأجمات الصغيرة (petit bois taillis)، ذات التربة الصلبة الرملية قليلاً، إلى السبخة[59]. صادف مستعمرة غير متوقعة من فلامينغو وردي أو المستنقعات المالحة الجافة، حيث تنبت شجيرات معزولة، وأهم النباتات السائدة هي: الزيتة (la zeita)، والضمران (dhomrân)، والطرفة(tarfa)، والبلبال(belbàl) [60].

وصل بعد الظهر إلى بئر العريفجي(Araïfdji)، حيث خيم أمام منطقة الكثبان الرملية التي تحمل نفس اسم البئر [61]. وصل إلى توغورت حوالي الساعة التاسعة صباحًا من يوم 23 فيفري[62]. قابله السيد غيليموت(Guillemot)، وقدمه إلى الكابتن

كانات(Canat)، وتلقى رسالة من أستاذه وصديقه الدكتور فلايشر(Dr Fleischer) الذي طلب منه رسميًا مقارنة اللهجات البربرية المختلفة باللغات المصرية.

وتلقى من السيد دي دلماس(M. de Dalmas)، رئيس ديوان الإمبراطور، رسائل توصية من باي تونس لمختلف القادة والأغوات في حكومته. وسعى دوفيرييه أن يلتقي بالكابتن لانجلوا(Langlois) إلى بسكرة، فقد قرر القيام برحلة مدتها عشرين يومًا إلى جنوب تونس. وصلته أمتعته، ونصبت خيمته على باب القصبة(63).

لقد أمضى فترة ما بعد الظهر، هو والسيد أوير(M. Auer)، وهو ملازم في الفيلق، في رحلة صيد في شيمورا(Chemorra)(64) لاقتناء البط البربري، ولاحظ وجود قطط لا تخاف الماء في الحدائق ليلاً، وتبحث عن طعامها في المزارع. وفي الخريف، في أحواض البطيخ(melons) والبطيخ(pastèques).(65). ولاحظ وجود حيوانات المستنقعات الأخرى هي طيور النحام(flamant) من نوعين، كما أخبرني السيد أوير؛ سنابس(bécassines)،البط البري (sarcelles)، القبرات (alouettes)، مالك الحزين(hérons)، الذعرات(bergeronnettes)، وأخيرًا طائر صغير جدًا ذو لسان طويل بشكل مذهل.كما لاحظ وجود أسماك في الخنادق وفي الطحالب المائية والبعوض. ثم قال « عدت مغطيًا بعضاتهم على جبهتي وعيني وخدي ويدي وحتى ساقي. تم علاج كل شيء بالماء المهدئ»(66).

يتكون الغطاء النباتي للأرض من الطرفاء، ولكن بأعداد صغيرة، وكمية من النباتات من جنس الخبز(baguel) والبلبال(belbâl)،ولكنها أكبر بكثير، فهي نباتات عصارية مفصلية. كما أن هناك كميات كبيرة من الاندفاعات(joncs) تصل إلى الركبتين وتنتهي في نقطة تؤذي الساقين عند المشي ويحتوي الماء على عدد كبير إلى حد ما من الطحالب المائية والكونرفاي(conferves). وذكر أن هناك نوع من الحمى تنسب إلى توغرت، فهي تحدث مرتين في السنة وتستمر كل مرة لمدة شهر؛ تنتشر خلال شهري مايو وأكتوبر.

وخلال ذلك تكتسب الخنادق المحيطة بالمدينة وجميع مياه الواحات الراكدة لونًا شوكولاتة يقترب حتى من لون الدم(67). وخلال مدة ثلاثة أشهر قضاها رجال الفيلق والمهندسون في توغورت، ظلت الصحة جيدة؛ لم يكن هناك سوى عدد قليل من حالات الإسهال التي كان من السهل علاجها. وترجع هذه الإسهالات أيضًا إلى مياه البلاد(68).

وتحدث عن مرض غريب يصيب الزنوج. أن بعضهم يتعرض لأيام جنون أو نكد، يقوم فيها بتصرفات غريبة تسمى هذه الحالة "مولا راس" في الهوسا، "بوري أو بولي" ومرة أخرى "إبليس"(ébelis)(69). وقضى صباح يوم (29 ماي 1860) في توغورت وتناول الغداء مرة أخرى مع أوير والشركة، واتخذ الاحتياطات اللازمة للمغادرة في اليوم الموالى.أتى القائد على ظهر حصان وقت المغادرة ورافقه إلى باب المدينة ليودعه، وقدم توصيات واسعة بشأنه(70).

وفي الطريق كان على يمينه اثنتين من القرى المحيطة بتوقرت، ومر بين غابات النخيل، وعبر مستنقعات شمورة(Chemorra) .وبعد فترة وجيزة، دخل منطقة ذات كثبان منخفضة، مما أدى به إلى "وادي" أو سهل مستوي إلى حد ما يسمى وادي السديري(Oued-es-Sédiri). وكان هذا السهل شاسعًا جدًا. ولاحظ النبات التي تغطي الأماكن الجافة من شيمورا تسمى رودهدام(rhodhdham)؛ تزهر في الربيع. وفي أول من الشهر مارس شق طريقه نحو الجريد في الجنوب التونسي عبر وادي سوف، فزار قابس وقبيلي(Kebilli) ونفزاوة(Nefzaoua)، ثم اتجه شمالا إلى قفصة وتوزر(71).

3- رحلته إلى منطقة الطوارق:

لم تكن هذه الرحلات بالنسبة لدوفيري سوى تمهيدية للاستكشاف الكبير الذي خطط القيام به في الصحراء الوسطى، إعدادًا وتدريبًا؛ لقد استكمل معرفته التقنية وخبرته مع السكان. ولفت انتباه الجنرال دي مارتيمبري(Martimprey) إليه، الذي حصل

له على مهمة رسمية بين طوارق أزدجر(Azdjer)، وكان معه لاستكمال مهمة بوضربة(Bou Derba)، بناء علاقات ودية معهم[72].

وكانت هذه الرحلات قد لفتت انتباه الحكومة العامة للجزائر إلى هذا الشاب، وهو الذي كان مسؤولا عن إتمام مهمة بوضربة وتجديد العلاقات الودية مع الطوارق أزجر، بهدف إعادة فتح الطرق لقوافل إلى السودان. ولدى عودته إلى بسكرة في 10 أبريل 1860، وجد دوفيري أخبارا سعيدة في انتظاره، حيث تم تكليفه بمهمة رسمية لدى طوارق أزجر [73].

وتلقى تعليمات وإعانات من الحكومة (الفرنسية) للقيام باستكشاف بلاد الطوارق. وصل إلى غدامس عن طريق وادي سوف وعبر العرق، وذهب إلى طرابلس لتأمين دعم حاكم طرابلس التركي [74]. جميع الرحلات التي قام بها دوفيرييه اعتبرت مجرد تمهيدات للرحلة العظيمة التي خطط القيام بها في الصحراء الوسطى، وكانت بطريقة ما إعدادًا وتدريبًا وأيضًا توقعًا قسريًا لظروف مواتية. ولذلك تلقى دوفيرييه في بسكرة، في جوان 1860، الإعانات التي احتاجها لاستكشاف بلاد الطوارق الشرقية [75].

وصل دوفيرييه أولاً إلى وادي سوف عبر طريق القوافل العادية، وفي هذه المدينة، استعد للتوجه أولاً إلى غدامس، هدفه الأول. ورافقه الشيخ عثمان وعدد قليل من الطوارق كمرافقين له. وقد حظي دوفريبه بالعناية والدعم من قبل الشيخ عثمان. وذلك بعدما كان دوفيري قد سأله أن يكون في حمايته وكذلك حماية أخوه الحاج أحمد، زعيم الهقار، ما يمكنه من زيارة الهقار بنفس الأمان الذي يتمتع به لدى آل أزدجر؛ فأجاب:«أي فرنسي يريد استكشاف الهقار سيتم استقباله بشكل جيد، إذا التزم بالعادات» .[76] وهكذا فقد مد الشيخ عثمان يد العون إلى دوفريبه وزوده بالمعلومات المتعلقة بحياة الطوارق. وفي سنة 1862 استدعته السلطات الفرنسية لزيارة باريس، وحظي بمقابلة الإمبراطور نابليون الثالث جزاء للخدمة التي قدمها لها في الصحراء[77].

دخل دوفرييه إلى غدامس يوم 11 أوت 1860 بعد رحلة دامت ستة أيام. حيث جاء إخنوخن(Ikhenoukhen) للانضمام إليه وكتب دوفيري من هذه المدينة في 14 أغسطس: «لقد تعلمت الكثير من رفيقي الشيخ عثمان ورجاله الطوارق، ولم يسعني إلا الإعجاب بهؤلاء الفرسان المعاصرين الذين يمتطون جمالًا خفيفة الانقياد ويمشون في صمت بلا حراك السروج، مثل الأشباح" [78]. وقد تم اعتقاله لبعض الوقت في هذه المدينة بسبب مضايقات السلطات التركية، ولم ينتصر إلا بالذهاب بنفسه إلى طرابلس، حيث عاد بتوصيات قوية من الباشا والقنصل الفرنسي في طرابلس بول إيميل بوتا(Paul-Émile Botta) [79].

غادر دوفرييه إلى غات (Rhat) مع الأمير إيخنوخن، أمير الطوارق أزجر . عبر الطريق الذي يمر عبر أوهانت(Ohanet)، ووادي تيخامالت(Oued Tikhammalt) وسفح طاسيلي دي آجرز إلى الغات، حيث وصل دوفيرييه في مارس 1861. وأقام فيها لمدة خمسة عشر يوما. ثم غادر غات مع الشيخ عثمان وإيخنوخن واتجه إلى مرزوق(Mourzouk). وبعدما وصل إلى زويلة (Zouila)، عاد من مرزوق إلى طرابلس عبر الطريق الطويل المؤدي إلى سوكنة(Sokna) [80].

لقد خلد دوفيرييه رحلته إلى منطقة الطوارق في كتاب عنوانه**"طوارق الشمال"** الذي يتشكل من أربعة أقسام: الأول مخصص للجغرافيا الطبيعية والجيولوجيا وعلم المعادن؛ والثاني، الإنتاج المعدني والنباتي والحيواني؛ والثالث، إلى مراكز النفوذ التجارية والدينية؛ أما الرابع فيتناول طوارق الشمال وأصولهم وانقسامهم إلى قبائل ودستورهم الاجتماعي وتاريخ القبائل وشخصياتهم المميزة وحياتهم الداخلية والخارجية[81]. وقد لعب الدكتور أوغوست فارنيي (Auguste Warnier)دورا الذي معالجة دوفيرييه، وفي تجميع هذا المجلد "طوارق الشمال"، كما تم نقش الخريطة التي بينت المنطقة التي زارها دوفيرييه[82].

وحسب دفيرييه تنقسم منطقة الهقار إلى أربعة تقسيمات سياسية رئيسية تتوافق مع أربعة تقسيمات إقليمية رئيسية، وهي:

1- اتحاد أزدجر(Azdjer) أو كل أزدجر(Kêl-Azdjer) في الشمال الشرقي وتكون هضبة طاسيلي في الشمال وتوابعها موطناً لها.

2- اتحاد الأهغار(Ahaggar) أو كل الأهجار(Kêl-Ahaggar). وفي الشمال الغربي في جبل الهقار .

3- اتحاد آير(Aïr) أو كيل آير(Kêl-Aïr)، والمعروف عمومًا باسم كيل-أوي(Kêl-Ouï)، في الجنوب الشرقي، في كتلة آير(Aïr) الصخرية، والتي تسمى أيضًا أزبين(Azben).

4- اتحاد أويلميدن(Aouélimmiden) بالجنوب الغربي، وتضم إقليمها قسما جبليا هو أدغاغ (Adghagh) وجزءا منبسطا أهاواغ(Ahâouagh)[83].

عاد دوفيرييه على الفور إلى الجزائر العاصمة، بعد رحلة طويلة دامت قرابة ثلاث سنوات. لكن مرضًا رهيبًا، حمى التيفوئيد، التي تفاقمت بسبب حوادث مدمرة، هزت صحته وحتى ذاكرته بشدة لدرجة أنه لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى الملاحظات التي كتبها سابقًا[84].

بعد مغادرة إيخنوخن(Ikhenoûkhen) في مرزوق(Mourzouk)، وصل دوفيري إلى طرابلس في 2 سبتمبر 1861. وأعادته باخرة إلى الجزائر العاصمة في نوفمبر. وفي 5 ديسمبر، أُجبر على النوم لعدة أسابيع. تضررت قدراته بشكل خطير وفقد ذاكرته لبعض الوقت. من الصعب اليوم معرفة ما هو مرضه. وعلى أحد الدفاتر التي استخدمها أثناء رحلته، وبعضها بعد عودته، كتب هذه الكلمات القليلة، ربما في عام 1862:« مرضي في الجزائر العاصمة وسان يوجين .وعندما وصلت إلى الجزائر العاصمة

قضيت 3 أسابيع على ما يرام. في حوالي 9 أو 12 ديسمبر مرضت . في حوالي 9 أو 12 يناير استيقظت. وصل والدي في نهاية ديسمبر. ويغادر في نهاية يناير»[85] .

في عام 1863، حصل دوفيرييه على الميدالية الذهبية الكبرى من Société de Géographie. لقد قام هذا الشاب الجريء، الموهوب بصفات نادرة، بواحدة من أجمل وأثمر الاستكشافات الأفريقية. لا يزال عمله عن الطوارق الشمالية، حتى اليوم، كتابًا أساسيًا عن جميع المسائل المتعلقة بالأزدجر(Azjers) والهقار. فكان دوفيرييه أول من قدم معلومات دقيقة ومفصلة عن هذه المنطقه، لأن بارث(Barth) الذي لم يكاد يمس الجزء الشرقي من الهقار، لم يقدم سوى بعض المعلومات. ومن ثم فإن عمل دوفيرييه بشأن الطوارق الشماليين كان مكملاً لعمل بارث بشأن الطوارق الجنوبيين[86]. ومن وجهة نظر الاستكشاف، قدمت أعمال استكشاف دوفيرييه الجميل الهامة، الذي عرّف ببلاد الطوارق الهقار من خلال المعلومات، وطاسيلي الأزجر، والطرق من غدامس وغات إلى سوف وطرابلس. تعتبر خريطة دوفيرييه وثيقة بيانية هامة للصحراء الوسطى[87].

الخاتمة:

إن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة نذكره فيما يلي:

1- في إطار اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية والجزائرية منها على الخصوص، سبق رحالون فرنسيون آخرون هنري دوفيريي، ويعود ذلك إلى ما قبل احتلالهم للجزائر سنة 1830، بداية من رحلة فردريك كايو (Frederic Cailliaud) خلال سنوات (1818-1822)، ورحلة روني كايي (René Caillié) خلال سنوات 1824-1828، الذي كان عازما على الدخول إلى تمبوكتو.

2- كانت فرنسا تهدف من هذه الرحلات في الصحراء بما فيها رحلات دوفيرييه الاستفادة من العمق الصحرواي للجزائر، فقد ودت هذه الدولة الاستعمارية إلى ربط مستعمراتها في

القارة الإفريقية بالجزائر، من خلال اكتشاف طرق المواصلات وتأمينها لدى سكان المناطق الصحراوية.

3- يمكن أن نقسم رحلات دوفيرييه إلى ثلاثة مراحل: الأولى التي قام سنة 1857 حين دعاه صديق والده الدكتور أوغست فارنيي القاطن قرية القندوري على بعد 30 كلم غرب مدينة الجزائر، ومنها انطلق إلى الجلفة والأغواط صحبة الجغرافي أوسكار ماك كارتي. الثانية كانت بدايتها سنة 1859 حين حل بمدينة سكيكدة ومنها إلى قسنطينة ثم إلى بسكرة ووادي ريغ، وادي سوف، ورقلة وتوغرت، وإلى الجنوب التونسي. أما المرحلة الثالثة فتلك التي قام سنة 1860 إلى الهقار ، التي انطلق إليها من وادي سوف ثم غدامس ثم إلى غات.

4- لقد خلف دوفيرييه أعمال رحلاته منها مقال في مجلة ألمانية "ملاحظات عن أربعة قبائل بربرية، تم جمعها خلال رحلة في الجزائر إلى بحيرة حلولة وإلى الأغواط في فبراير ومارس وأبريل 1857" وأشهر كتبه **هو**"طوارق الشمال" الصادر سنة 1864. وتجدر الإشار إلى أن دوفيرييه لم يحاول التخفي في زي إسلامي، ولم يخف أنه مسيحي، مثلما فعل ذلك العديد من الرحالة الذين سبقوه، بل تنقل بثيابه الأوروبية على أنه مسيحي.

الهوامش:

(1) Françoise Aujogue , Papiers d’Henri Duveyrier (1840-1892) et de Charles Maunoir (1830-1901) 47 AP 1-25, Centre Historique des Archives Nationales, Paris, 2004, Pp .3-4.
(2) Ch. Maunoir et H. Schirmer, Journal de route de Henri Duveyrier, Augustin Challamel, Éditeur, Paris, 1905, p.XIII.
(3) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.XIII.
(4) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.XV.
(5) Françoise Aujogue, p.4
(6) اسمه الكامل أوسكار لويس ألفريد ماك كارثي (Oscar Louis Alfred Mac Carthy) وهو جغرافي ومستكشف فرنسي من أصل أيرلندي ولد باريس، 1815- وتوفي في مدينة الجزائر 23 ديسمبر 1894.

(7) H. Duveyrier, Notizen über vier berberische Volkerschaften, während einer Reise in Algérien nach Hallûla-See und nach Laguàt in Februar, Marz und April 1857,gesammelt, Zeitschrift der deutscken morgenländischen Gesellschaft, t. XII, 1858, p. 176-186.

(8) هاينريش بارث من مواليد 16 فبراير 1821، في هامبورغ بألمانيا كان جغرافيًا ألمانيًا وأحد المستكشفين العظماء لأفريقيا. تلقى بارث تعليمه في في جامعة برلين، وكان لغويًا كفؤًا يجيد الفرنسية والإسبانية والإيطالية والإنجليزية والعربية. سافر إلى المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط والتي أصبحت الآن جزءًا من تونس وليبيا (1845-1847) ونشر ملاحظاته في عام 1849. عنوانها "المشي لمسافات طويلة عبر السواحل البونيقية والقورينية"، أو المغرب وإفريقيا وبرقة(Wanderungen Durch Das Punische Und Kyrenäische Küstenlan Oder Mâg'reb, Afrikîa Und Barká) ، توفي في 25 نوفمبر 1865، في برلين.

(9) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة ، 1993، صص. 264.

(10) نفسه ، صص. 264-265.

(11) Henri Duveyrier, Les Touareg du nord, Challamel Ainé . Libraire – Éditeur, Paris, 1864,Introduction, p.I.

(12) Henri Duveyrier , Les Touareg du nord, Challame Challamel AINÉ . Libraire - Éditeur ,Paris,1864,Introduction, pp.XVIII-XIX.

(13) P. Vuillot, L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, pp.61-63.

(14) P. Vuillot, p.65.

(15) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.3.

(16) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.4.

(17) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.4.

(18) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.5.

(19) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.6.

(20) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.7.

(21) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.8.

(22) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.8-9.

(23) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 9.

(24) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 9.

(25) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 9-10.

(26) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 10-11.

(27) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.12.
(28) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.12-13.
(29) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 13.
(30) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 13-14.
(31) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 14.
(32) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 14.
(33) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15.

(34) بنو طرود وهم: بنو طرود بن فهم،: أعشى طرود الشاعر، قال في العبر: وهو بطن متسع ، وكانوا بأرض نجد وليس منهم الآن أحد. قال: وبإفريقية من بلاد المغرب منهم الآن حي عظيم ينزلون ويظعنون مع سليم ورياح، العبر 2، 205) أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب زمان، تحقيق ابراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري، القاهرة ، 1982، ص.112.

(35) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15.
(36) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15.
(37) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 15-16.
(38) Ch. Maunoir et H. Schirmer,p.16.

(39) هو مشروب اليانسون الكحولي الذي يتم استهلاكه في معظم دول البحر الأبيض المتوسط. وهو عديم اللون، ولأنه يحتوي على السكر فهو أحلى.

(40) Ch. Maunoir et H. Schirmer,p.16.

(41) الذراع هو وحدة قياس تقليدية لقياس الطول، ويعتمد على طول الساعد: من المرفق إلى طرف إصبع الوسطى.، الذي يراوح طوله بين 45 و 67 سنم.

(42) تساوي حوالي 31 غرام.

(43) Ch. Maunoir et H. Schirmer,p.16-17.
(44) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 17.
(45) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 18.
(46) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 19.
(47) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 19-20.
(48) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 20.
(49) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 20-21 .
(50) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 21.
(51) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 22.
(52) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 22-23
(53) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 23 .

(54)نجحت فرنسا في استمالة سي حمزة بن بو بكر زعيم الفرع الشرقي من أولاد سيدي الشيخ بتعيينه سنة 1850 خليفة على الجنوب الجزائري.

(55) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 23-24 .
(56) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 24.
(57) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 24-25 .
(58) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 25 .
(59) هي سبخة صفيون (Safioune) (32° 16'19" شمالاً، 5° 6'22" شرقاً، بديل 129 م)، بحيرة مالحة شاسعة شمال واحة ورقلة، والتي وفقاً للسجلات السابقة جافة دائماً).
(60) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 25.
(61) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 26.
(62) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.28.
(63) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.29.
(64) وهي عبارة عن منخفض واسع مغطى بالمستنقعات يمتد إلى شرق مزارع تقرت وباتجاه الشمال.
(65) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p.29-30.
(66) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. -30.
(67) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. -30-31.
(68) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 31.
(69) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 32.
(70) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 32-33.
(71) Ch. Maunoir et H. Schirmer, p. 33.
(72)Augustin Bernard ; N. Lacroix , Historique de la pénétration saharienne , Giralt, Imprimeur – Photograveur, Alger, 1900, pp.50-51.
(73) Vuillot, L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, 65.
(74) François Demoulin, L'exploration du Sahara, Annales de géographie , Année 1931, 226, p. 345, (pp. 337-361)
(75) P. Vuillot, p.65-66
(76) François Demoulin, 226, p. 346..
(77) Mission de Ghadamès (Septembre Octobre, Novembre et Décembre), Rapport Officiels et Documents a l'appui, Publiésavec l'autorisation de M.le MaréchalDuc de Malakoff, Gouverneur Général de l'Algérie, Typographie Dulaux, Alger,1863,p.10.
(78) Vuillot, p.66.
(79) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.51.
(80) François Demoulin, n° 226, p. 346.
(81) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.52.
(82) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.51.
(83) Duveyrier, Les Toureg du nord, p.1-2.
(84) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.51.

(85) Dominique Casajus, Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle: Henri Duveyrier chez les Touaregs, Gradhiva, revue d'histoire et d'archives de l'anthropologie , 2003, 33, pp. p.13.
(86) François Demoulin, L'exploration du Sahara, Annales de géographie , Année 1931, 226, p. 346.
(87) Augustin Bernard ; N. Lacroix ,p.58.

البيبليوغرافيا

1– باللغة العربية:

بدوي،عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة بيروت، 1993،

القلقشندي، أبوالعباس أحمد بن علي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب زمان، تحقيق ابراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري، القاهرة ، 1982.

2– باللغات الأجنبية:

Aujogue Françoise , Papiers d'Henri Duveyrier (1840-1892) et de Charles Maunoir (1830-1901) 47 AP 1-25, Centre Historique des Archives Nationales, Paris, 2004.

Bernard Augustin & Lacroix N. , Historique de la pénétration saharienne, Giralt, Imprimeur – Photograveur, Alger, 1900.

Casajus Dominique, Le destin saharien d'un saint-simonien rebelle: Henri Duveyrier chez les Touaregs, Gradhiva, revue d'histoire et d'archives de l'anthropologie , 2003.

Demoulin François, L'exploration du Sahara, Annales de géographie , Année 1931, 226, pp. 337-361.

Duveyrier Henri, Notizen über vier berberische Volkerschaften, während einer Reise in Algérien nach Hallûla-See und nach Laguàt in Februar, Marz und April 1857,gesammelt, Zeitschrift der deutscken morgenländischen Gesellschaft, t. XII, 1858.

Duveyrier Henri, Les Touareg du nord, Challamel Ainé . Libraire – Éditeur, Paris, 1864,Introduction.

Maunoir Ch. et Schirmer H., Journal de route de Henri Duveyrier, Augustin Challamel, Éditeur, Paris, 1905.

Mission de Ghadamès (Septembre Octobre, Novembre et Décembre), Rapport Officiels et Documents a l'appui, Publiés avec l'autorisation de M.le Maréchal Duc de Malakoff, Gouverneur Général de l'Algérie, Typographie Dulaux, Alger,1863.

Vuillot P., L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, pp.61-63.

Vuillot, P. L'Exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel , Éditeur Librairie, Paris ,1895, 65.
Barth Heinrich, Wanderungen Durch Das Punische Und Kyrenäische Küstenlan Oder Mâg'reb, Afrikîa Und Barká, Verlag von Wilhelm Herb, Berlin, 1849.

القباب بالمنشآت الدينية الإسلامية خلال الفترة الوسيطة: قبّة الجامع الكبير بتلمسان دراسة حالة

The Domes in Islamic Religious Buildings during the Medieval Period: A Case Study of the Great Mosque Dome in Tlemcen

مجاهدي إبراهيم *
مخبر التراث الأثري وتثمينه، جامعة تلمسان –الجزائر
brahim.medjahdi@univ-tlemcen.dz

خشاب نوال
مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، معهد الآثار –الجزائر
awalmarwa@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/04/01	2025/07/19	2025/07/31

الملخص:

لقد كان للجامع الكبير مكانة هامة للساكنة في حاضرة تلمسان، وخاصة قبته، ويرجع ذلك لما تمثله هذه الأخيرة من ذوق فني وزخرفي ومعماري بارز، حيث تعتبر بصدق أحد العناصر التي أبدع فيها المهندس المعماري المسلم بتلمسان خلال العصر المرابطي، وأظهرت مدى إتقانه ومهارته في البناء والإنجاز الممتزج بالإبداع الفني الذي ينم عن تفوق هذا المهندس في سعة الخيال، والجمع بين الجانب الروحي الديني والمادي، وعن روعة الفن العربي الإسلامي بحضارة تلمسان وما كان عليه المرابطون من ذوق رفيع وإتقان للحرف والصنائع، فهي تعكس بذلك القيمة الحياتية الدينية والثقافية والاجتماعية والمعمارية والفنية السائدة حينها.

الكلمات المفتاحية: المنشآت الدينية؛ القباب؛ الجامع الكبير؛ تلمسان.

Abstract:

The Great Mosque held significant importance for the residents of Tlemcen, especially its dome, due to what the latter represents in terms of prominent artistic, decorative, and architectural taste. It is truly considered one of the elements in which the Muslim architect in Tlemcen excelled during the Almoravid period, showcasing his mastery and skill in

* المؤلف المرسل

construction and execution, blended with artistic creativity that reflects this architect's remarkable imagination. It harmoniously combines the spiritual and religious aspects with the material, highlighting the splendor of Arab-Islamic art in Tlemcen and the refined taste and craftsmanship of the Almoravids. Thus, it reflects the prevailing religious, cultural, social, architectural, and artistic values of that time.

Keywords : religious buildings; domes; Great Mosque; Tlemcen

مقدمة:

لقد عاشت تلمسان عصرها الذهبي في ظل الثقافة العربية الإسلامية فكانت مركزا للإشعاع الحضاري ومدينة زاخرة بالفكر والعمران، ويتضح كلّ هذا في جوانب عديدة من العمران والعمارة ولعل في مقدّمتها المساجد وعناصرها المعمارية، فقد كانت هذه الأخيرة نتاج عدّة دويلات حظيت من خلالها تلمسان وعبر مسيرتها الحضارية بعدد كبير من المنشآت الدينية تفاعلت مع غيرها استنادا إلى الثنائية "التأثير/التأثر"، ولا شكّ في أنّ الفنّ المغربي الأندلسي تطور بشكل كبير في العصر المرابطي فلقد اهتم المرابطون بمجال الزخرفة وبالمواضيع الفنية كما يتضح في جامع تلمسان الكبير خاصة بقبته المخرمة.

إنّ تفاني أنامل المهندس المعماري العربي المسلم عبر فترات تاريخية سابقة خلّدت بصماته من خلال هذه المآثر المعمارية المتمثلة في العمارة الدينية التي أدّت وظيفتها لممارسة الشعائر الدينية بالإضافة إلى وظائف أخرى متعددة، فزاد من جمال هذه البنايات الأجزاء والأشكال الهندسية المتمثلة في المنارات والأعمدة والأقواس والقباب وتحفا أخرى شكلت هذا البناء المتكامل، وما أردنا أن نقف عليه من خلال بحثنا هذا هو دراسة جزء من العناصر المعمارية للمنشآت الدينية المرابطية بمدينة تلمسان ممثّلة في القبة المخرّمة بالجامع الكبير، والتّي تعتبر بصدق أحد أهم العناصر المعمارية التّي أظهر فيها المهندس المعماري المسلم بتلمسان خلال العصر المرابطي مدى إتقانه ومهارته في البناء الممتزج مع الإبداع الفني الذي ينمّ عن

تفوق هذا المهندس في سعة الخيال والجمع ما بين الجانب الفني الزخرفي والجانب المعماري التقني.

ومن هذا المنطلق تولّد لنا اهتمام بموضوع القبة المخرمة بالجامع الأعظم المرابطي بتلمسان من خلال دراستها أثريا ومعماريا وفنّيا وفقا للإشكالية رئيسية هي:

ماهي المميزات والخصائص المعمارية التقنية والفنية الزخرفية للقبة المخرمة بالجامع الكبير المرابطي بتلمسان؟

1. الجامع الكبير بتلمسان: الموقع والتّأسيس

يتوسط الجامع الكبير المرابطي مركز المدينة المرابطية تاغرارت أحد الأجزاء الثلاثة المكونة لمدينة تلمسان الإسلامية، ويعتبر هذا الجامع من المساجد القليلة الباقية من العهد المرابطي بالجزائر رفقة مسجدي ندرومة والعاصمة.

1.1. موقع المسجد من المدينة: ترتفع مدينة تلمسان على سطح البحر بحوالي 2600 قدم أي ما يقارب 380م وتحيط بها الجبال من الغرب والجنوب والتي تعتبر بمثابة حصون قوية تحميها من الغزاة، وهي من الصخور المسامية التي تتمكن من تخزين كميات هائلة من المياه واخراجها على شكل ينابيع وأنهار[1]، وصفها يحي بن خلدون في بغية الرواد بقوله: "**مدينة عريقة في التمدن، لدنه الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ورنيد عروسا فوق منحة، والشماريخ مشرفة علها إشراف التاج على الجبين تطل على فحص للفلج**"[2].

وفي مركز هذه المدينة العتيقة يقع الجامع الكبير الذي أسس في عهد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين فهو يعد جوهرة الجزائر الساطعة من الغرب، وهو الأمر الذي جعله محل اهتمام المختصين والمؤرخين أمثال بارجس وجورج مارسي وغيرهم، ويعتبر الجامع أحد

المعالم المرابطية الشاهدة على أصالة المدينة ودورها الرائد من القدم في خدمة الإسلام والمحافظة على هوية الأمة ويعتبر مثالا على استمرارية العمارة الدينية وتطويرها.

2.1. تأسيس الجامع الكبير بتلمسان وتطوره: أثار تاريخ الجامع الكبير جدلا كبيرا بين الباحثين بسبب الغموض الذي يكتنف تاريخ بعض عناصره المعمارية وعدم وجود كتابات تأسيسية يمكننا الاستناد إليها لتحديد السنة أو الفترة التي أنشئ فيها الجامع، وليس هذا بغريب في المساجد المرابطية بالمغرب الأوسط، فقد أدى اقتصار النقوش الكتابية على بعض العناصر الملحقة بالمساجد في فترات مختلفة من تاريخها، مثل منبري جامعي ندرومة* والجزائر، حيث أننا لم نستطع تحديد تاريخ إنشاء كل من الجامعين على وجه الدقة[3]، ومما يزيد الأمور تعقيدا في الاعتماد عليها بصفة قطعية في تأريخ المسجد ويجعل الأمر نسبيا غير موثوق بصحته على خلاف مساجد إفريقية (تونس) التي تحتفظ بتاريخ كل زيادة ألحق بها ، وبكل تجديد تعرضت له بفضل النقوش الكتابية التي سجلت تاريخ إنشاء كل إضافة أو عمل معماري أو زخرفي أجري على هذا المبنى.[4]

كما أدى نقص النقوش الكتابية التي تشير إلى كل زيادة أو تجديد يلحق بالجامع الكبير بتلمسان إلى تناقض الآراء حول تاريخ بنائه والسنوات التي تم فيها تحديد الجامع أو اصلاحه أو تعميره[5]، ففي الوقت الذي أكد فيه معظم الباحثين على أن هذا الجامع يرجع تاريخ بنائه إلى عهد علي بن أبي تاشفين** استنادا إلى التاريخ الذي ورد ذكره في النقش التأسيسي الذي يحيط ب[6]رقبة قبة المحراب بالجامع، نلاحظ أن اسم المؤسس لهذا الجامع أزيل من النقش على أيدي الموحدين بعد استلائهم على تلمسان.[7]

الصورة رقم01: منظر عام للجامع الكبير بتلمسان.



المصدر: من تصوير الباحثين

يقع الجامع الكبير ضـمن المكان القديم المسـمى "تاغرارت" إذ يعتبر من أجمل الآثار المرابطية الباقية حتى اليوم، ولكي نرسم صورة صحيحة هن تاريخ ومراحل بنائه وأسلوب زخارف لا بأس من الإشارة إلى الحقائق التاريخية التالية:

– توجد كتابة محفورة تدور بقاعدة قبة المحراب تأكد أن إتمام البناء كان في جمادى الثانية عام 530هـ / 1135م.

– هناك نقش كتابي آخر منحوت على باب المقصـورة يشـير إلى هذا العمل بتاريخ 533هـ/1138م.

– ذكر ابن أبي زرع في معرض حديثه عن أعمال عبد المؤمن أنه بنى عام 540هـ/1145م، أسوارا لقرية تاغرارت بالقرب من مدينة تلمسان وكذا المسجد وجدران المدينة أي تلمسان[8].

– في رحلة عبور محمد بن عبد الله التبسي أكد بأن الأمير يغمراسن بن زيان قد أقام مئذنة للمسجد الكبير بتلمسان.

– وجد نقش كتابي محفور على لوحة خشبية موضوعة في حائط المحراب يشير إلى أنّ أبا حمو الثاني بنى مكتبة ملاصقة للجامع.

انطلاقا من هذه المعطيات التاريخية يمكننا تحديد بناء هذا المسجد في فترة حكم المرابطين.[9]

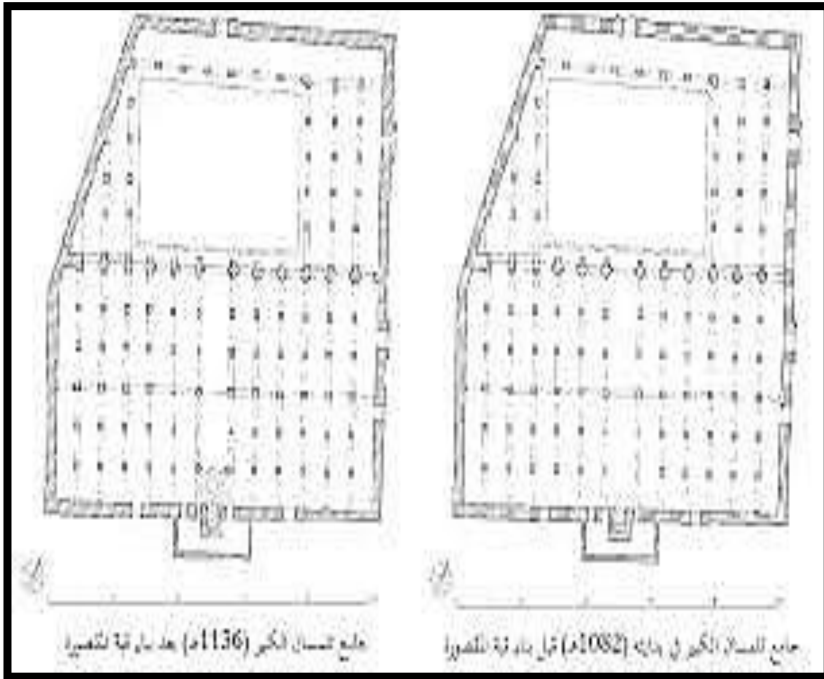
خلال العهد المرابطي وأثناء حصار يوسف بن تاشفين لتلمسان القديمة-أغادير- بنى مدينة جديدة تاغرارت تلمسان الحديثة ومعناها المحلة في لغة القوم، فأصبحت المركز الرسمي للحكومة المرابطية حيث نزل بها القواد والجنود والأعيان كل ذلك ساهم في تشيد دار الإمارة والمسجد الجامع بها كما هو الشأن عند احداث المدن الجديدة، فبنى وقتها يوسف قصر تلمسان القديم الذي كان موقعه غرب الجامع الكبير.[10]

ظلت تلمسان وغيرها من مدن الجزائر خاضعة لحكم المرابطين فترة طويلة من الوقت ازدهرت فيها العمارة والفنون الإسلامية كما انشأت المساجد والقصور والقلاع، ولا سيما في عهد الأمير يوسف بن تاشفين الذي أولى اهتماما كبيرا بإقامة المساجد [11]، وهذا ما يؤكده النص الآتي: "**فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس حصنها وأتقنها وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الأندلس**

وردهما مصــرا واحدا، وأمر ببناء المســاجد في أزقتها وشــوارعها وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجهزهم على بناء مسجد فيه، وبناء الحمامات والفنادق."[12]

لقد خصص جورج مارسيه العديد من المقالات عن هذا المسجد، إذ لاحظ وجود ثلاث مراحل مر بها هذا الأثر تمثلت المرحلة الأولى بداية من بناء الجامع أيام يوسف بن تاشفين في 475هـ / 1082م، قبل تأتي المرحلة الثانية انطلاقا من سنة 530هـ/1135م وهذا عندما زيّن علي بن يوسف المسجد بالزخارف الرائعة التي يزدان بها وجه المحراب، وكذا البلاطة الوسطى والقبة التي أمام المحراب، بينما تمثّلت آخر مرحلة في فترة حكم الأمير يغمراسن سنة 1235م/1282م، حيث أضاف إلى الجامع الكبير القسم الشمالي من بيت الصلاة مع القبة والمئذنة.[13]

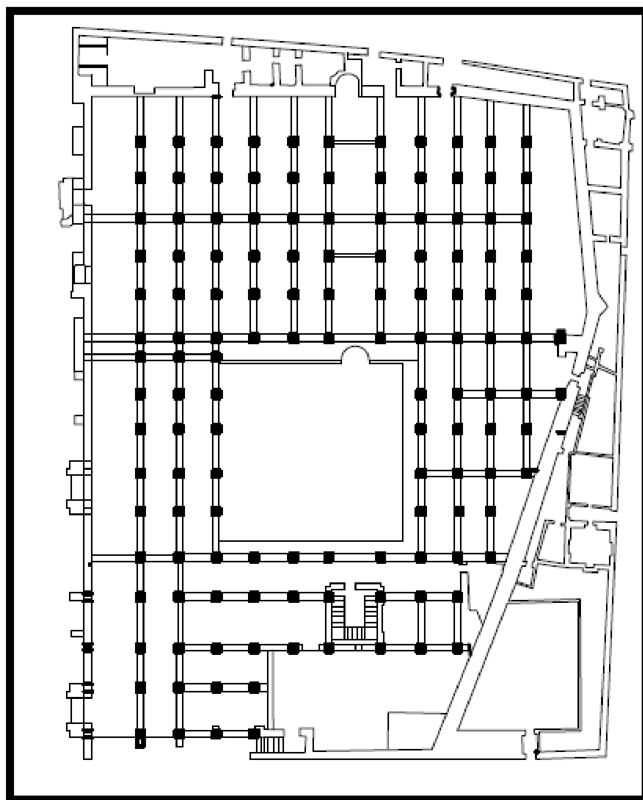
الشكل رقم01: مخطط الجامع الكبير سنة 1082 و1136هـ



المصدر: مكتب الدراسات التقنية لتلمسان OGBC

لكن ومع ذلك إلا أنّه هناك بعض الأدلة التي اعتمدها بعض الأثريين عكس ما ذهب إليه جورج مارسيه، فهذا رشيد بورويبة يعتقد أن يوسف بن تاشفين عند دخوله مدينة تلمسان وجد بها مسجد أغادير الذي أسسه إدريس الأول سنة 172هـ/788م، وهذا ما جعله يغض الطرف عن بناء مسجد جامع للمدينة الجديدة تاغرارت* التي بناها بالقرب من مدينة أغادير القديمة اكتفاء بالمسجد القائم بها، كل ذلك يكون قد دفع بالمؤرخين إلى عدم التطرق بالحديث إلى هذه النقطة في مؤلفاتهم.

الشكل رقم 02: المخطط العام للجامع الكبير.



المصدر: مكتب الدراسات التقنية لتلمسان OGBC –بتصرف من الباحثين–

3. القبة: مفهومها ونشأتها وتطوّرها

تعتبر القبة أحد العناصـــــر المعمارية المهمة التّي اهتم بها البناؤون منذ الفترات الأولى للظهور هندسة البناء، وقد تطورت بشكل رهيب خلال الفترة الإسلامية.

1.3. التعريف اللغوي والاصـــطلاحي للقبة: يأتي التعريف اللغوي لها فيقال القُبَّة والقِبَّة والقَبَّة، والقبب مصـــدر قب، والقبة بناء مســـتدير مجوف وخيمة صـــغيرة أعلاها مستدير والجمع قباب وقبب.[14]

أما اصطلاحا فهي نوع من الأقبية التي تستخدم للتسقيف وهي بأبسط أشكالها عبارة عن نصـف كرة مجوفة تقف على أعمدة أو جدران، مصـنوعة من مواد مختلفة وتعتبر القبة عنصـرا من عناصـر العمارة الإسـلامية، كما تسـتعمل كلمة قبة للدلالة على بناية جنائزية مربعة ومغطاة بقبة.

ويمكن اعتبارها قوس متكرر وملتف حول وسـطة فالقبة لها القدرة على تحمل الأحمال الإنشائية ويمكن مدها على مساحة واسعة.[15]

2.3. لمحة تاريخية عن نشـــأة القباب: لقد طور الرومان القباب الحجرية في أفضـــل صـــورها وظهر أوج ذلك التطور في معبد البانثيون الذي بناه الإمبراطور "حاد ريان" بين عامي 118 و128 ميلادية، حيث ترتكز القبة على أسـطوانة دائرية ضـخمة ، واسـتمر استخدام القباب في العصر النصراني المبكر في المباني المعمارية الدائرية والصغيرة نسبيا مثل الأضـرحة والبيوت العمودية حيث يعمد ذلك النصـارى ، وهناك نموذج حي على ذلك وهو كنيسة "كوستانزا " التي يرجع تاريخها إلى 350 ميلادي بروما، ولقد تميز المعماريون البيزنطيون بروح الابتكار العالية في استخدام القباب ففي العاصـمة البيزنطية القسـطنطينية

بنيت سلسلة من الكنائس المقببة وقد بلغ أوج ذروتها في كنيسة " آيا صوفيا" التي بنيت عامي532–537ميلادية.[16]

3.3. أنواع القباب: استخدمت القباب في القديم كسقف للأكواخ الدائرية المبنية بالطوب اللبن في منطقة الجزيرة وفي بلاد الرافدين منذ حوالي ستة آلاف عام مضى، وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد. بنى اليونانيون مقابر مسقفة بقباب منحدرة على شكل مدبب.[17]

والقباب هي إحدى العناصر المستخدمة بالمساجد والأضرحة الإسلامية، كما أنّها تزين من الداخل والخارج بزخارف (نباتية، خطية، هندسية، كتابية أو مختلطة)، وتتنوع أشكال القباب باختلاف الطرز الإسلامية، إلا أنها من حيث الشكل نجد نوعين:

- **القبة الكروية**: عبارة عن نصف كرة في كافة اتجاهاتها وهي بناء دائري محدب من الخارج ومقعر من الداخل ومنها ما هو مرتفع أو منخفض أو متجاوز.
- **القبة المدببة**: وهي نصف كرة متطاولة أي بيضوية أو مجموعة أضلاع هرمية متصلة ينتهي رأسها أو قمتها بنقطة أو منحنى صغير، ومنها المرتفعة أو المنخفضة أو المتجاوزة، وقد شاع بناء هذه القبة المدببة في العهد الأيوبي وما تلاه من العهود.[18]

وقد تطورت القباب وأصبحت أكثر تعقيدا لارتباطها بجانبين، وظيفي وتزيني في وقت واحد، وأضيفت إليها مسطحات مقعرة تمثل المحاولة الأولى في زخرفتها بالمقرنصات.[19]

أمّا خلال العصور الإسلامية فقد ارتبطت القباب بالمساجد، ويرجع سبب هذا الارتباط القبة إلى أنها تمثيلها الفضاء الرحب والسماء الواسعة التي توحي بالمعاني الروحية، وكذلك لمساعدتها على اشاعة الهواء في المساجد التي تخلو من النوافذ، كما أن شكلها المقوس الأجوف يساعد على تجميع الأصوات أثناء الصلاة.

أمّا عن أنواع القباب من حيث مظهرها الزخرفي فلقد برع الفنان المسلم في التفنن والاعتناء الخارجي للعمائر الإسلامية، فتنوعت بذلك القباب فنجد:

- **القبة المخرمة:** هي القبة التي بها ثقوب وانشقاقات داخل الزخارف لوظيفتها الجمالية واضفاء النور من خلالها والتهوية [20].
- **القبة الملساء:** هي أبسط أنواع القباب في دمشق سطحها أملس خال من الزخارف والكتابات.
- **القبة المحززة:** تتميز هذه القبة بزخرفتها بالخطوط الطويلة التي تقطعها من قاعدتها إلى قمتها حيث تتلاقى بنقطة أو بمنحنى صغير.
- **القبة المزخرفة:** تشمل كل قبة يزخرف سطحها النقش، الرصف*، الطلاء، القشاني**، أو بالنصوص الخطية.
- **القبة المقرنصة:** على شكل مقرنصات هرمية مقلوبة أو مختلطة[21].

4.3. نماذج للقباب: إنّ تاريخ أول قبة مسجد في الإسلام هي قبة الصخرة الشريفة التي تعتلي المسجد الذي سمى باسمها والموجود في ساحة الأقصى[22]، فقد ذكر اليعقوبي أن الخليفة الأموي عبد الملك هو من أمر ببناء مسجد قبة الصخرة سنة 72هـ/681م[23].

فقد قرر الخليفة الأموي عبد الملك أن يبني قبة رغبة منه أن تضاهي قبة مسجد القيامة التي يحج إليها النصارى، وقد خشي أن تؤثر ضخامة هذه الكنيسة في قلوب المسلمين فاعتزم أن يبني قبة مثلها وأحسن منها فنصب على الصخرة قبة وبالغ في حجمها وزخارفها.[24]

تقع القبة على الحجرة المقدسة التي يقال أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عرج به منها، وهي كتلة غير منتظمة من الصخر الطبيعي، ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب 17م–70م وعرضها من الشرق إلى الغرب 13.50م أما ارتفاعها عن الأرض15م، والقبة تقوم على أربع دعام كبيرة ملبسة بالرخام الأبيض وهذه الأعمدة والدعائم مرتبة في تكوين دائري كاف للإحاطة بالصخرة ويقع بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة، ويعلو القبة رقبة أسطوانية تحتوي هذه القبة على 16 نافذة تسمح بدخول النور. مقاسات قبة الصخرة 36 قدما طولا و42 قدما عرضا. [25]

ومن القباب الإسلامية الشهيرة يمكن أن نذكر قبة المسجد النبوي –الروضة الشريفة– في زمن قلاوون الصالحي عام 678هـ/1279م، وقبة تاج محل بالهند التي بناها الحاكم المغولي شاه جهان كضريح لزوجته، وقبة النسر التي تعلوا الجامع الأموي بدمشق أين يرجع تاريخ بنائها إلى 67هـ//687م وغيرها من القباب الحديثة النشأة والتطور. [26]

5.3. تقنية بناء القباب: القبة عبارة عن إنشاءات هندسية معمارية مقوسة الشكل تستخدم في تغطية المساحات الدائرية أو المربعة، حيث يتم الانتقال من المربع إلى الدائرة عن طريق أكتاف وبروزات موجودة بزواياها، وفي حالة كون القاعدة التي ترتكز عليها القبة الدائرية فتنتقل الأحمال ومباشرة إلى القاعدة، وإذا كانت القاعدة مربعة فيجب أن تنشر الأحمال باستخدام وسائل إنشائية مثل المقرنصات.

إنّ من إيجابيات القباب ارتفاعها وسعة الفضاء الداخلي مع تضليل جزء منها في معظم أوقات النهار المشمسة، بينما الجزء الآخر من القبة يمتص أشعة الشمس، وبذلك ينتقل الهواء الساخن في الفضاء الداخلي إلى الفضاء الخارجي المضلل والبارد نسبيا، وللقباب أشكالا مختلفة مبنية من الحجر والطين والآجر والجبس ومواد أخرى.

بعد تطرقنا لهذا فإنّنا ندرك أن تقنية البناء لها علاقة وطيدة مع مواد البناء، وهذه الأخيرة هي من تحدد للمعماري التقنية التي يتبعها في بناءاته العمرانية أو الإنشائية، ومن خلال هذه الدراسة يتسنى لنا معرفة الأضرار اللاحقة بالعناصر المعمارية أولا والإنشائية الفنية ثانيا، وبالتالي يسهل علينا تحديد التلف وطريقة المعالجة، وحماية العناصر الزخرفية الجصية التي تحمل هذه العناصر المعمارية.[27]

4. القبة المخرمة في الجامع الكبير المرابطي بتلمسان

يأتي التخريم من مصدر خرم الشيء أي ثقبه وشقه، ونقول خرم البطاقات وثقبها، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضحى بالمخرمة [28].

تقع القبة المخرمة الكبرى المسماة بقبة الضوء في تقاطع البلاطة الوسطى مع الأسكوب الخامس، ويعود الفضل في بنائها إلى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين (530هـ/1136م) حسبما يشير إليه الشريط الكتابي الذي يحيط بقاعدتها، ويمكن القول بأن اتساع المكان للبلاطة مكّن المرابطين من بناء قبة المحراب ذات التخاريم الجصيّة الدقيقة التي ينفذ منها الضوء لتنوير بيت الصلاة، أمّا من الخارج فإن القبة تقع في اتجاه القبلة، في حين ومن الداخل فقد تفنّن المهندس وأنامل البنّاء الأندلسي في زخرفة وجمالية القبة كجوهرة متلألئة في النهار والليل على السواء.

كما تعتبر هذه القبة هي الوحيدة في المغرب الأوسط من هذا النمط التي وصلتنا من عهد المرابطين كما أنها أول قبة أقيمت في المغرب الإسلامي على غرار جامع قرطبة، قبة مضلعة ذات أسلوب ونمط بنائي مع شيء من التطوير في بعض العناصر المعمارية كالضلوع وإدخال بعض العناصر الأخرى في البناء كالحنايا الركنية والمقرنصات، وتتكئ هذه القبة على جدار المحراب من جهة القبلة، أما الجهات الثلاث الأخرى فتقوم على

العقود التي تعترض أسكوب المحراب ترتكز على عقدين متقابلين حدويين أمّا المقابل لجدار المحراب فهو عقد مفصص.

انتقلت هذه القبة من الشكل المربع الى الشكل الدائري عن طريق التجويفات الركنية التي تزينها المقرنصات وينطلق من أعلى الرقبة اثنتي عشر ضلعاً رفيعاً مبنيا من الآجر تمر بأعلى القبة تتقاطع في عدة نقاط مع بعضها البعض كما تترك هذه الضلوع بينها مساحات مخرمة تحكي تقنية وجدية المهندس والبناء الأندلسيين تشغلها زخارف جصية تشبه تشبيكات النوافذ، تتمثل في مزيج بين الزخارف النباتية والمراوح النخيلية ويحيط بقاعدة القبة شريط من الكتابة.

هذه الكتابة هي بالخط الكوفي ويوحي إلى ذلك الأسلوب الأندلسي الجميل الأنيق، وأنت تتطلع إلى هذه القبة المخرمة تنبهر بتقنية ودقة وجماليات كما انسجام وتوافق الجانب المعماري والزخرفي المزدوج الذي تستعمله هذه القبة.

الجدول رقم01: مقاسات القبة

القبة	الارتفاع من القاعدة إلى الأعلى	العرض	الارتفاع من الشريط الكتابي إلى الأعلى	العرض
القبة المخرمة	4,6م	3,80م	1,95م	3,90م

المصدر: من إعداد الباحثين.

ترتكز القبة المخرمة على إطار مربع بزخرفة كتابية في غاية الدقة والروعة والجمال، ونفذت هاته الكتابة بالخط الكوفي المورق، وتحتوي الكتابة على تحويرات حلزونية هذا نصها: "**بسم**

الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم هذا مما امر بعمله الأمير أيده الله وأعز نصره وأدام دولته وكان عمله على يد الفقيه الأجلّ القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن ابن علي أدام الله عزهم ،فتم في شهر جمادى الأخيرة عام ثلاثين وخمسمائة"."، وقد كتبت بأسلوب أندلسي جميل ويلاحظ أن اسم الأمير قد مسح من الكتابة كما أشرنا إليه سابقاً.

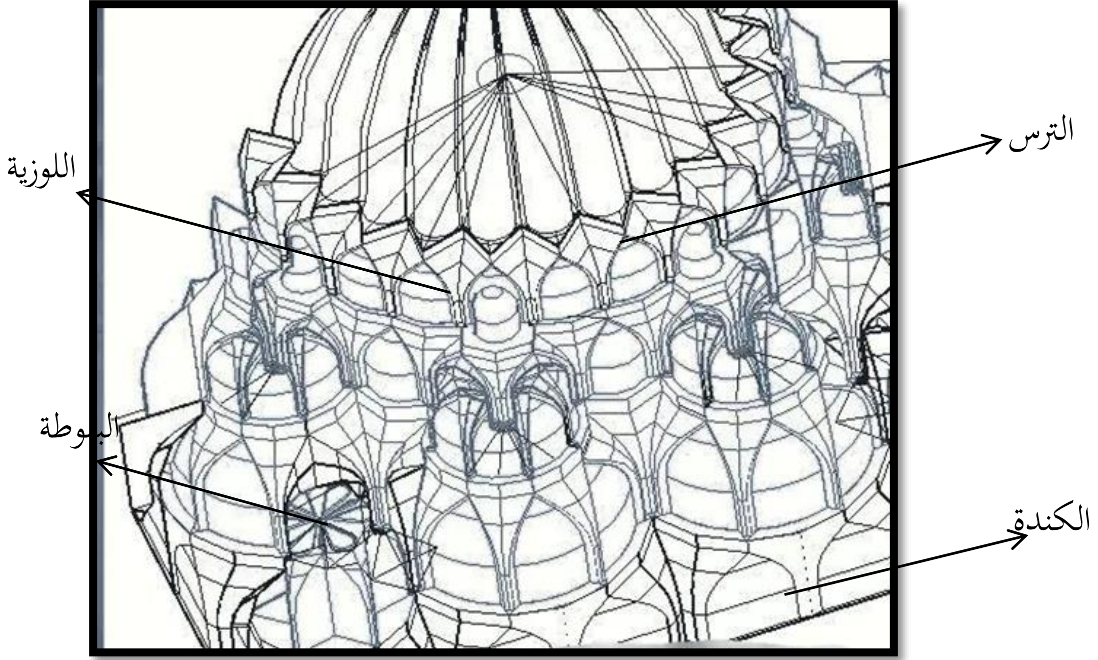
الصورة رقم 02: القبة المخرمة من الداخل



المصدر: من تصوير الباحثين.

تنطلق المقرنصات* من مستوى مثمن الزوايا لتصل إلى قبيبة فوقانية لها ستة عشر أخدودا، إنها تشبه كثيرا قباب معالم غرناطة واشبيليا لكنها لم تدرج المستطيل المثنى على غرار معظم هذه الأخيرة وفقا الشكل التالي:

الشكل رقم 05: رسم ثلاثي الأبعاد يمثل الأشكال الهندسية داخل القبة المقرنصة.



المصدر: من إعداد المهندس هادف سالم -بتحقيق الباحثين-

خاتمة:

بدأت تفد التأثيرات على المغرب الأوسط مقابل تفاعل المرابطين لرقة الحياة الأندلسية وانغماسهم في الترف الذي اتسمت به الأندلس منذ القرن الخامس الهجري، فأخذ التيار الحضاري الإسباني المغربي يتسرب إلى الجزائر ولاسيما تلمسان حيث تربع المرابطون على بناء هذه الأساليب للفن الأندلسي الجميل.

ساد الطراز المغربي الإسلامي في الأندلس قبل أن يصل إلى أَوَجّ ازدهاره خلال القرن التاسع الهجري، ومن أبرز خصائصه استعمال المقرنصات واستخدام الجص المحفور واللون الذهبي في التزين في القباب، ويظهر لنا هذا الفن في القبة المخرمة لمسجد تلمسان المقتبسة

فكرتها من قباب جامع قرطبة، إلّا أنّ البنّاء في عهد المرابطين لم يبق على فكرتها المعمارية البحتة المتمثلة في العقود الحجرية المتينة، بل إنه استطاع أن يطورها لتؤدي الغرض المعماري والفني في الوقت نفسه.

استعمل المهندس المقرنصات في تحويل المربع إلى مثمن وهو الشيء الذي تفتقده القباب المضلعة في جامع قرطبة كما أن طراز الضلوع الرفيعة والتي تحتوي بينها مساحات زخرفية مخرمة تدل على مدى النضج الفني الذي بلغه المرابطون، ومدى درجة التحول الحضاري الذي عرفوه في عهد علي بن تاشفين، وإن كنا نرجح أن يكون بناء هذه القبة قد تم على يد بعض الذين استقدمهم هذا الأخير من الأندلس.

لقد اتجه الفنان المسلم إلى استخدام أساليب وأشكال فنية ذات طابع خاص تتلاءم وروح العقيدة الدينية التي فرضتها الحضارة الإسلامية، لذا جسدت الصورة المتميزة لمنجزات الحضارة الإسلامية طرازا فنيا تعددت فيه النماذج والأشكال والزخارف بأنواعها من قباب وعقود وأعمدة وغيرها، حتّى أصبح المتأمل يشعر تلقائيا بأنسابها وهويتها عبر فيض روحها الداخلية وثراء شكلها الخارجي بمبدأ تأسيس علاقة بين الإنسان والطبيعة بنظرة جمالية، ولقد أجاد البناء المعماري في تنوع أشكال بناء القباب وكذا مهارته في تقنيات وهندسة وزخرفة نماذج وأنواع مختلفة.

الهوامش:

[1] الحميري بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: حسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص135

[2] يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر، ج01، ص84.

* ندرومة: مدينة واقعة في الشمال الغربي من تلمسان تبعد عنها بنحو 60 كلم، وقد جاء في وصف الحميري لها بأنّها مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه وبينها وبين البحر عشرة أميال. للمزيد: أنظر الحميري بن عبد المنعم، المصدر السابق، ص576.

[3] مبارك بوطان، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز العلمية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص88.

[4] أحمد فكري، المدخل: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1961، ص291.

[5] نفسه، ص249.

** هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، ولد سنة 407هـ/1116م، تولى إمارة المرابطين بعد وفاة أبيه سنة 500هـ/1106م، انظر: بن أبي زرع، الأنيس المغرب بروض القرطاس وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1936م، ص78.

[6]

[7] Barges L, Tlemcen Capital du Royaume de ce Nom ‹paris‹ 1888‹ p435.

[8] صالح بن قربة، العمارة الدينية في عصر المرابطين، مجلة سيرتا، مج01، ع04، 1980، ص35.

[9] نفسه، ص37.

[10] ابن رمضان شاوش محمد، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص65.

[11] صالح بن قربة، المرجع السابق ص42.

[12] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص91.

[13] صالح بن قربة، المرجع السابق، ص37

* تاغرارت: بناها يوسف بن تاشفين في حدود اثنين وستين وأربعمائة بمكان محلته ولذلك سميت باسم تاغرارت، فإنه اسم المحلة بلسان زناتة، أنظر: يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص91.

[14] ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد المنعم خليل ابراهيم وعامر أحمد حيدر، ط04، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، مج01، ص289.

[15] أحمد فكري، مسجد القيروان، ط02، مطبعة المعارف، القاهرة، 1994، ص89.

[16] سيد بسيوني، فن العمارة، ط02، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2015، ص–ص 146-147.

[17] نفسه، ص 146.

[18] قاسم جليل الحسني، المنظومة الزخرفية في الفنون الإسلامية: دراسة في مفهوم الصيرورة، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص75.

[19] جورج مارسي، الفن الإسلامي، تر: عفيف بهنسي، منشورات الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968، ص112.

[20] أحمد فكري، المرجع السابق، ص102.

* الرصف هو ضم الحجارة ببعضها البعض، جعل لها أرصفة تصافت واستوت وانتظمت بلطها بالحجارة المنحوتة.

** القشاني خزف صيني ملون، للمزيد انظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص112.

[21] قاسم جليل الحسني، المرجع السابق، ص–ص 75-76

[22] سيد بسيوني، المرجع السابق، ص–ص 147- 148.

[23] عفيف بهنسي، المرجع السابق، ص56.

[24] سيد بسيوني، المرجع السابق، ص149.

[25] بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالتها الثقافية والبيئية، النشر الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان، ص68.

[26] سيد بسيوني، المرجع السابق، ص–ص 148 – 149.

[27] حسن محمود نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ،1997، ص87.

[28] ابن منظور، المرجع السابق، ص220.

* المقرنصة: هو عنصر من العمارة الإسلامية ذو أشكال متعددة متكاثرة ومتزاحمة بصفوف مدروسة التوزيع والتركيب وكأنها بيوت النحل أو أقراص الشهد تتلاصق خلاياها تجمع بين عناصرها خطوط وكتل متناغمة متناهية الدقة، تغطي المقرنصات المجالات المقعرة والسطوح حادة الاطراف في الأركان بين السقف والجدران.

قائمة المراجع والمصادر:

1. Barges L, Tlemcen Capital du Royaume de ce Nom ‹paris‹ 1888.

2. ابن رمضان شاوش محمد، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

3. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد المنعم خليل ابراهيم وعامر أحمد حيدر، ط04، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.

4. أحمد فكري، المدخل: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1961.

5. أحمد فكري، مسجد القيروان، ط02، مطبعة المعارف، القاهرة، 1994.

6. بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالتها الثقافية والبيئية، النشر الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان.

7. بن أبي زرع، الأنيس المغرب بروض القرطاس وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1936م.

8. جورج مارسي، الفن الإسلامي، تر: عفيف بهنسي، منشورات الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968.

9. حسن محمود نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ،1997.

10. الحميري بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: حسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.

11. سيد بسيوني، فن العمارة، ط02، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2015.

12. صالح بن قربة، العمارة الدينية في عصر المرابطين، مجلة سيرتا، مج01، ع04، 1980.

13. قاسم جليل الحسني، المنظومة الزخرفية في الفنون الإسلامية: دراسة في مفهوم الصيرورة، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، 2016.

14. مبارك بوطان، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز العلمية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

15. يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر.

التغيرات الديمغرافية في الجزائر العثمانية في ظل انتشار الأوبئة والأمراض: دراسة في الأثر الصحي والاجتماعي

Demographic changes in Ottoman Algeria in light of the spread of epidemics and diseases: a study of the health and social impact

شلغوم أسماء *

جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي

chelghoum.asma@univ-oeb.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/04/23	2025/07/24	2025/07/31

الملخص:

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني سوء للأحوال الاجتماعية واكبه سوء للأحوال الصحية والمعيشية نظرا للتغيرات الديمغرافية التي كانت قد عرفتها البلاد، اذ تطورت العديد من المدن ونمت بسرعة كبيرة، فكان ان زادت حاجيات السكان للغذاء والخدمات الصحية، خاصة بعدما عرفت ظهور لأمراض وأوبئة كالطاعون بالمدن الكبرى والأوبئة المنقولة عن طريق الموانئ وكذا الفيضانات وفترات الجفاف التي عرفتها البلاد من جهة، ومن جهة أخرى لا مبالاة الحكام العثمانيين للجانب الصحي بحيث لم يتخذوا أي اجراء وقائي ضد تنامي تلك الأمراض ليرجع هذا بالسلب على الوضع الديمغرافي خاصة أواخر القرن18م، حيث تناقص عدد سكان المدن والارياف، وعلى هذا الأساس نحاول في ورقتنا البحثية هذه التطرق لإشكالية جوهرية: فيما تمثلت انعكاسات انتشار الأمراض والأوبئة على الوضع الديمغرافي بالجزائر العثمانية ؟

* المؤلف المرسل

يهدف المقال إلى دراســـة تأثير انتشـــار الأمراض والأوبئة خلال العهد العثماني في الجزائر على الوضــع الديموغرافي، وذلك من خلال تسـليط الضـوء على الظروف الاجتماعية والصـحية المتدهورة، والإهمال العثماني في اتخاذ الإجراءات الوقائية.

النتائج:

- ✓ تدهور الأحوال الصحية والمعيشية نتيجة التغيرات الديموغرافية ونمو المدن السريع.
- ✓ إنتشار الأمراض مثل الطاعون بسبب المستنقعات، الموانئ، الفيضانات، وفترات الجفاف.
- ✓ غياب التدخل العثماني لمواجهة هذه الأوبئة زاد من سوء الوضع الصحي.
- ✓ إنخفاض عدد السكان في المدن والأرياف، خاصة في أواخر القرن 18م.
- ✓ تأكيد العلاقة بين إنتشار الأوبئة والتغيرات السكانية السلبية في الجزائر العثمانية.

الكلمات المفتاحية: التغيرات الديمرافية؛ الأوبئة؛ الطاعون؛ الجفاف؛ الإجراءات الوقائية.

Abstract:

AL’époque ottomane, l'Algérie connaissait de mauvaises conditions sociales, accompagnées de mauvaises conditions de santé et de vie en raison des changements démographiques que le pays avait connus, car de nombreuses villes se développaient et grandissaient très rapidement, de sorte que les besoins de la population en nourriture et en services de santé augmentaient, en particulier après avoir connu l'apparition de maladies et d'épidémies telles que la peste due à la propagation des marécages dans les plaines côtières, autour des grandes villes et des épidémies transmises par les ports, ainsi que des inondations et des périodes de sécheresse que le pays a connues d'une part, et d'autre part d'autre part, l'indifférence des dirigeants ottomans à l'aspect sanitaire, car ils n'ont pris aucune mesure préventive contre la croissance de ces maladies, en raison de cela affectant négativement la situation démographique, en particulier à la fin du XVIIIe siècle après JC.Là où la population des villes et des zones rurales a diminué, et sur cette base, notre mémoire de recherche est venu aborder un problème fondamental représenté dans : Quelles ont été les répercussions de la propagation des maladies et des épidémies sur la situation démographique en Algérie ottomane ?

Key words: demographic changes; epidemics; plague; drought; preventive measures.

مقدمة:

شهدت الجزائر خلال فترة التواجد العثماني، الممتدة من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، تحولات ديموغرافية ملحوظة، حيث عرفت العديد من المدن نمواً سريعاً وتوسعاً حضرياً. غير أن هذا التطور الحضري لم يصاحبه تحسن في الأوضاع الصحية والمعيشية، مما أدى إلى ظهور سلسلة من الأوبئة الفتاكة، خاصة خلال مطلع القرن الثامن عشر، أين تفاقمت حدة الأمراض والمجاعات. وكان مرض الطاعون من أكثر الأوبئة انتشاراً وتأثيراً، حيث خلّف انعكاسات سلبية عميقة على الوضع الديموغرافي في البلاد. ومن هنا، جاءت هذه الورقة البحثية لمعالجة الإشكالية التالية: ما هي انعكاسات انتشار الأمراض والأوبئة على الوضع الديمغرافي في الجزائر خلال العهد العثماني؟

أهداف الدراسة:

1. تحليل العوامل التي ساهمت في تدهور الأوضاع الصحية والمعيشية.
2. إبراز دور الأوبئة، وعلى رأسها الطاعون، في التأثير على التوازن السكاني.
3. فهم العلاقة بين الإهمال الصحي من طرف الإدارة العثمانية وتفاقم الأزمات السكانية.

المنهجية المعتمدة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع الأوضاع السكانية والصحية للجزائر خلال الحقبة العثمانية، بالاستناد إلى المصادر التاريخية والمعطيات الديموغرافية المتوفرة، وتحليل أسباب انتشار الأوبئة ونتائجها على المجتمع الجزائري آنذاك.

1- الوضع الديمغرافي بالجزائر خلال العهد العثماني

تميز الوضع الديمغرافي في الجزائر خلال الفترة العثمانية بعدم الاستقرار من حيث عدد السكان وكثافتهم، وذلك نتيجة للأوضاع المعيشية والظروف الصحية. فقد قُدِّر عدد السكان في القرن السادس عشر بحوالي 70 ألف نسمة، بينما أشار الجاسوس بوتان[1] إلى أن عدد السكان قبل الاحتلال كان يُقدَّر بنحو 73 ألف نسمة. ومع حلول سنة الاحتلال، انخفض عدد السكان إلى 35 ألف نسمة[2].

وبناءً على ذلك، شهد النمو الديمغرافي في الجزائر عدة مراحل، نستعرضها فيما يلي:

1.1- مرحلة النمو المرتفع

شهدت الجزائر خلال فترة الحكم العثماني مرحلة من ارتفاع ملحوظ في النمو الديمغرافي، وذلك نتيجة لتحسن نسبي في الظروف الأمنية والاقتصادية، مما ساعد على استقرار السكان وزيادة عددهم، خصوصًا في المناطق الحضرية. كما كان للهجرات وتوافد الأتراك دور في تنويع البنية السكانية. وتعتبر هذه المرحلة أساسية لفهم تطور الوضع الديمغرافي في تاريخ الجزائر.

1.2.1- توافد العناصر الأندلسية:

تعود البدايات الأولى لوجود الأندلسيين بالمدينة إلى القرن التاسع هجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي، من خلال موجات الهجرة[3] التي حدثت بعد سقوط آخر معاقل الأندلس في عام1492 بيد الإسبان، وقد عرفت عدداً من المهاجرين من مختلف شرائح المجتمع (أبناء الشعب- البسطاء- أحفاد الملوك-الوجهاء-أصحاب الصنائع- وأصحاب العلم) على شواطئ المغرب الإسلامي طلباً للحماية[4].

يشير أندريه ريمون إلى أن الجالية الأندلسية كان لها دور بارز في الجزائر، حيث زاد عدد أفرادها بشكل ملحوظ خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، جاء ذلك

بعد أن طرد المغاربة نهائيًا من إسبانيا نتيجة القرارات التي أصدرها الملك الإسباني فيليب الثالث (1596-1621م) في عام 1609. في تلك السنة، لجأ حوالي 40 ألف شخص إلى تونس من بين 80 ألفًا غادروا إسبانيا، بينما استقر جزء آخر في الجزائر، حيث ساهموا في تعزيز النشاط الاقتصادي للبلاد، خاصة في مجالات الاستثمار الزراعي، كما لعبوا دورًا مهمًا في تنشيط الحركة التجارية، لا سيما في مجالات نسج الحرير وصناعة البلاطات الخزفية وأعمال البناء[5]، ونظرًا للتدفق الكبير للأندلسيين إلى الجزائر، تمكن أفراد الجالية الأندلسية من تكوين ثروات ضخمة بفضل نشاطهم الاقتصادي، مما ساهم في تعزيز فعالية اقتصاد إيالة[6] الجزائر، كما قدمت هذه الفئة خدمات إدارية للعثمانيين، حيث اشتهروا بتحصيل الضرائب وجمع موارد الخزينة وتسجيلها، وبفضل خبرتهم المالية، انخرطوا أيضًا في أعمال القرصنة والنخاسة وافتداء الأسرى[87]، أدى هذا الوضع إلى حدوث اكتظاظ كبير، مما دفع العديد من السكان إلى النزوح خارج أسوار المدينة والاستقرار في المرتفعات المطلة على باب الوادي، كما زادت الحاجة إلى المساكن في المناطق الحضرية، مما جعل التوسع العمراني ضرورة ملحة، وكان قد اختار الأندلسيون المواقع المرتفعة بالقرب من القصبة، حيث يمكن رؤية البحر بوضوح. ونتيجة لذلك، ازدادت كثافة المباني على التلال والمرتفعات، وتم بناء المنازل على السفوح وفي أماكن الحدائق[9].

2.2.1-توافد العنصر التركي

يعود توافد الجيش الانكشاري في الجزائر الى عام1520م، حينما بعث السلطان العثماني سليم الأول(1512-1520) الى خير الدين بربروسة[10] حوالي ألفين من الانكشارية، ثم أضاف لهم بعد ذلك حوالي أربعة الاف من المتطوعين مقابل حصولهم على حقوق مالية وامتيازات معتبرة[11] وتعتبر هذه العملية من أهم المميزات التي ربطت الجزائر بالباب العالي، خصوصا وأن الجزائر كانت بأمس الحاجة لعملية التجنيد لتدعيم قواتها العسكرية التي كانت تتصدى للاعتداءات الخارجية المتكررة والقوى الداخلية المعارضة[12]

وقد استمر مجيء الجنود إلى الجزائر حتى أوائل القرن التاسع عشر، إذ كانت سلطات الجزائر ترسل موفدين عنها لتجنيد متطوعين في جيشها، ، أو تستخدم وكلاء عنها لهذا الغرض[13].

كان العثمانيون معروفين بتنوع أصولهم وأجناسهم، حيث ضموا الأتراك، الأرناؤوط، البشناق، الأكراد، الإغريق، البلغار، البغدان، التشيك، الأرمن، وحتى التتار. ورغم هذا التنوع، شكلوا مجتمعًا موحدًا تميز بلغة تركية ومذهب حنفي[14]، لم تكن هذه الفئة منعزلة اجتماعيا بحكم علاقات المصاهرة التي جمعتها مع العناصر الأخرى[15].

3.2.1-البرانية:

شهدت مدينة الجزائر ظاهرة تدفق سكان المناطق الداخلية إليها من الجبال، مشابهةً لما حدث في مدن عربية أخرى مثل بغداد وتونس وصفاقس، وقد تميزت تركيبة الوافدين إلى مدينة الجزائر بتنوع كبير، حيث جاء العديد منهم من المدن القريبة وما حولها، مثل البليدة[16]، كما نزح عدد من الأشخاص من مناطق متيجة والقليعة وشرشال ومليانة والمدية، بالإضافة إلى آخرين من زمور ومنطقة سباو وفليسة، ووصل آخرون من بجاية وقسنطينة ووهران ومستغانم ومازونة ومعسكر[17].

2.1- مرحلة الانخفاض والتراجع السكاني

عرفت الجزائر مع نهاية القرن الثامن عشر تراجع في تعداد السكان إلى حوالي ثلاثين ألف نسمة إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر(1830)[18]، ويعود السبب الرئيسي وراء هذا التراجع إلى انتشار الأمراض والأوبئة، بالإضافة إلى التدهور الاجتماعي الناتج عن انتقال العدوى من الدول المجاورة، نظرًا لارتباط الجزائر ببلدان البحر الأبيض المتوسط، وانفتاحها على مناطق السودان، وعلاقاتها التجارية مع أوروبا، فضلاً عن ارتباطها الروحي بالمشرق الإسلامي، ومن بين الأمراض التي انتشرت بشكل كبير في تلك الفترة، كان وباء الطاعون، الذي أعتُبر من أخطر الأمراض التي عانت منها مختلف فئات المجتمع الجزائري

خلال العهد العثماني، حيث أصاب أيضًا جميع العناصر الأجنبية المقيمة في البلاد، وقد تكرر ظهور هذا الوباء، مما أدى إلى تراجع النمو الديمغرافي[19]إذ تناقص عدد السكان وبالتالي تناقصت اليد العاملة[20]تاركاً خللاً في البنية الاجتماعية الجزائرية[21].

3- الأمراض والأوبئة وانعكاساتها على الوضع الديمغرافي بالجزائر العثمانية

1.1- الأوبئة (وباء[22] الطاعون):

الطاعون (LA Peste) هو مرض معدٍ تسببه جرثومة اليارسين (Bacille de Yersin).وقد أشار الأطباء إلى أن سبب ظهور هذه الجرثومة يعود إلى التلوث وتسمم الهواء الناتج عن الروائح الكريهة لجثث الجراد الميت المتعفنة. يُصنف الطاعون إلى ثلاثة أنواع:

1. الطاعون الخمجي (Peste septicemique)، حيث تتواجد جرثومة الطاعون في الدم.

2. الطاعون الحيواني(Peste bubonique)، الذي يظهر على شكل بقع صلبة على الجلد، ويعرف في الجزائر بالولسيس، ويعتبر من أخطر الأنواع، حيث يؤدي إلى وفاة 70% من سكان المنطقة المصابة.

3. الطاعون الرئوي (Peste pulmonaire)، حيث تتواجد الجرثومة في الرئتين، ويظهر هذا النوع عادة خلال الأشهر الباردة، على عكس الأنواع الأخرى التي تظهر في الأيام الحارة[23].

تعود الأسباب الرئيسية لانتشار هذه الأمراض إلى التنقلات البحرية، حيث كانت سفن الحجاج القادمة من مناطق مصابة بالداء تصل إلى الموانئ الجزائرية. بينما اعتبر البعض أن المرض كان مستوطناً في البلاد، وأن الجراثيم القادمة من المغرب كانت أكثر خطورة من تلك

القادمة من المشرق. في حين ربط آخرون ظهور هذه الأمراض بالاضطرابات المناخية مثل الجفاف والفيضانات[24]، كما كانت الأسواق أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الأمراض، حيث ساهمت في تبادل البضائع بين الناس. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك احتكاك بين المصابين، أو إنتقال العدوى عبر الفرق العسكرية التي كانت تنقل الأمراض من مناطق مصابة إلى أخرى سليمة، خاصة خلال الحملات العسكرية التي كانت تهدف إلى إخضاع السكان أو جمع الضرائب، على سبيل المثال، الطاعون الذي إنتشر بواسطة الفرق العسكرية في جنوب بايليك قسنطينة عام 1786، كما لعبت المراسلات دورًا في هذا الانتشار، حيث تسببت الرسائل الإدارية والسياسية والدبلوماسية في نقل الطاعون من منطقة إلى أخرى، من خلال لمس الرسائل المغلقة المصنوعة من الساتان أو قماش الأطلس[25].

يمكن الإشارة أيضًا إلى أن جهل معظم الناس بأبسط قواعد الصحة، وعدم إتباع سياسة وقائية تعتمد على تحسين الأوضاع في البلاد من خلال الحفاظ على النظافة وتطوير المستشفيات المنتشرة، بالإضافة إلى نقص الأدوية، حيث تكاد البلاد تخلو من الصيدليات أو متاجر بيع الأدوية، مع وجود صيدلية واحدة فقط في مدينة الجزائر، كل ذلك ساهم في تفاقم الأمراض وزيادة انتشارها[26]، من ناحية أخرى، يتضح أن عدم اهتمام العثمانيين بالشؤون الصحية، بما في ذلك غياب المستشفيات، دفع الجزائريين إلى اللجوء إلى الزوايا التي كانت تستقبل العجزة والمرضى وتقوم بتقديم العلاج بالأعشاب المعروفة، مستندين في ذلك إلى ما كتبه ابن سينا، كما كانوا يستخدمون الجن والأرواح في معالجة مرضاهم، أما بالنسبة للجراحة، فكان الحلاقون هم من يقومون بها لعدم وجود أطباء، حيث كانوا يعتمدون على طريقة الكي، ولم يكن في الجزائر سوى مستشفى واحد، وكان مخصصًا للنصارى[27].

انتشر وباء الطاعون في معظم الدول المطلة على البحر المتوسط، بما في ذلك الجزائر. ويعود مصدره الأصلي إلى المدن التركية، التي كانت تعتبر مراكز جذب لمختلف الأجناس،

حيث إنتقل هذا الوباء من المدن الساحلية التركية إلى بيروت والإسكندرية، ثم إلى دول المغرب العربي[28] بشكل عام، والجزائر بشكل خاص، وقد تفشى الوباء بشكل خاص في منطقة الساحل، التي تشمل مدينة الجزائر وضواحيها، حيث بلغت نسبة الانتشار 53.8%، في حين وصلت النسبة في المنطقة الشرقية (قسنطينة) إلى 26%، وفي المنطقة الغربية (وهران) إلى 14.9%[29].

خلف هذا المرض آثارًا خطيرة. ففي عام 1542، اجتاح وباء الطاعون مدينة وهران خلال حكم حسن آغا، مما أسفر عن خسائر فادحة دفعت الإسبان إلى مغادرة المدينة، واستمر الوباء حتى عام 1545، مما أدى إلى حدوث مجاعة كبيرة. نتيجة لذلك، قام حسن بن خير الدين في عام 1549 بإنشاء بيت مكون من خمس غرف مخصص للعلاج من الأمراض المختلفة، وقد تم ترميمه في عام 1662، بالإضافة إلى بناء أربع بيوت أخرى للعلاج، فضلاً عن إنشاء صيدلية لتوفير الأدوية اللازمة للمستشفيات[30]، وقد ذهب ضحية هذا الوباء أربع باشاوات من بينهم صالح رايس[31].

عرفت الجزائر وباءً في عام 1548 أدى إلى هلاك السكان، وكان من بين ضحاياه خير الدين بربروس. وفي عام 1554، تعرضت البلاد مرة أخرى لوباء الطاعون، الذي كان أكثر فتكًا من الوباء السابق واستمر لمدة ثلاث سنوات، مما أسفر عن وفاة ثلث السكان، فقد انتشر هذا الوباء في وسط المدينة وحتى في ثكنات الجنود. وتشير الدراسات إلى أن سكان الريف كانوا هم السبب في نقل الوباء إلى المناطق الداخلية[32]، ومع حلول منتصف القرن السادس عشر، تفاقم وباء الطاعون مما أدى إلى زيادة عدد الضحايا، لكنه شهد تراجعًا في عام 1582، وتعتبر الفترة من 1666 إلى 1673 هي الفترة التي إنتهى فيها وباء الطاعون بشكل كامل، ومع ذلك، عادت الإيالة لتواجه طاعونًا خطيرًا قادمًا من إيالة تونس عبر البر، حيث وصل إلى وهران بواسطة بحارة إسبانيين، ثم إنتشر في المغرب الأقصى مما تسبب في وفاة العديد من السكان، ففي عام 1787، بلغ عدد وفيات وباء الطاعون

بين المسلمين ما بين 200 إلى 240 شخصًا يوميًا، بينما كان عدد الوفيات بين اليهود والمسيحيين يصل إلى 700 شخص. بناءً على ذلك، اضطر الباي محمد الكبير [33]إلى اتخاذ إجراءات عاجلة الى مغادرة وهران والإقامة بسهل " ملاتة" قرابة ثلاثة أشهر إلى أن زال المرض، سمي الوباء خلال هذه الفترة(1201هـ/1786-1787م) بالوباء الكبير نظرا لبقائه لفترة طويلة، إذ وصل عدد الأموات أحيانا 500 جنازة كل يوم، وقيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية[34]، يذكر ناصر الدين سعيدوني أن الأرياف خلال وباء 1787كادت أان تفتقر والمدن تناقص عدد سكانها كثيرا، إذ تراجع عدد سكان مدينة الجزائر إلى خمسين ألف نسمة بعد أن أودى بحوالي16.821 نسمة من اهاليها[35]، ليستمر هذا الأخير بالجزائر إلى سنة(1211هـ-1796-1797م) [36]، وتعتبر الفترة من نوفمبر1817 إلى نهاية أكتوبر1818 الأكثر انتشارا للمرض حيث بلغ عدد الوفيات6095 حالة عام1817، وعليه كان وباء1817 أهم هذه الأوبئة الذي ظهر مع قدوم سفينة عثمانية حاملة الحجاج من الإسكندرية ودام ثلاث سنوات، وعم جميع انحاء البلاد، وكان من شديد الانتشار فنذكر على سبيل المثال أن مدينة وهران كانوا يموتون في الشوارع، أما في مدينة الجزائر فهلك حوالي13.330 شخصا في الفترة من21جوان 1817 الى6سبتمبر1818، وهي الفترة التي بلغ فيها المرض أوجه، وقد انتشر هذا المرض ليشمل المناطق الجبلية مثال على ذلك منطقة جبال جرجرة انتقلت إليها العدوى عن طريق جماعة من الأهالي لجأت إلى هناك، وفي عام1818 ارتفع عدد الوفيات إلى6844 حالة وفاة [37]، ولم تنقص حدة هذا الطاعون إلا سنة1822م[38].

لم يكن الطاعون الوباء الوحيد الذي يهدد السكان إنما كانت هناك أمراض عرفها المجتمع الجزائري كالحمى حيث أشار بيربروجر[39] أن معالجتها كانت تتم من خلال أكل الخبز المجفف، واللحم المملح بالإضافة إلى شرب الماء العذب الذي يساعد على إخراج العرق لتسهل عملية الشفاء[40]، وأمراض الجهاز التنفسي ففي الفترة الممتدة بين1840 الى1857

تم إحصاء حوالي1425 حالة وفاة بسبب هذا المرض، وحوالي 13 حالة وفاة بسبب الاختناق، في حين أعطى السيد ميتشل نسبة 1882 حالة وفاة بسبب أمراض الصدر المختلفة من أصل 13872 حالة وفاة من جميع الأمراض[41].

شهدت الجزائر منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى فترة الاحتلال الفرنسي عدة أوبئة، مثل الطاعون والحمى وأمراض الجهاز التنفسي، بالإضافة إلى ذلك، ظهرت ظواهر أخرى مثل زحف الجراد والجفاف، مما أدى إلى القحط والغلاء وانتشار المجاعات[42]. كل هذه العوامل أسفرت عن تراجع ديمغرافي ملحوظ، كان له تأثير سلبي واضح على سكان الريف والإنتاج الزراعي. هذا التراجع أدى بدوره إلى انخفاض الضرائب المفروضة على هذا الإنتاج، والتي كانت تُفرض أساسًا على أفراد الجماعات الرعوية الخاضعة[43].

وعليه يمكن القول أن مرض الطاعون من بين الأمراض التي وقفت السلطات المحلية عاجزة أمامه، إذ عجزت عن أخذ آية تدابير وقائية له، لما كان من اختلاف بين رجال الدين فيما يتعلق بمعاملة المصابين ومعالجتهم[44]، فمنهم من دعى إلى الاحتراز[45] معتمدا على قوله تعالى:" **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**"[46]، ومنهم من يدعوا إلى التوكل على الله وعدم الاحتراز معتمدين على قوله تعالى:﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا** مَا كَتَبَ **اللَّهُ** لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى **اللَّهِ** فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[47] وقوله تعالى﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً** ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[48]، وعلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:"**لا يغني حذر** من **قدر**[49]"، وكان قد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كيفية التعامل مع هذا المرض بقوله: "الطَّاعُونُ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ".

ويعد هذا المرض من أهم الأمراض التي أدت إلى تراجع المجتمع الجزائري نظرا لأخطاره الجسيمة[50]، مما أسفر عن وفاة عدد كبير من السكان[51]، نستند في ذلك إلى ما ذكره الزياني خلال زيارته للجزائر (تلمسان):" **وكان عاما في العمائر التي بينها(تلمسان) وبين الجزائر. فما نزلنا منزلا إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم**"[52].

يمكن القول إن السنوات: 1717، 1718، 1723، 1730، 1733، 1778، 1799، 1816، و1822 هي الأكثر انتشارًا لهذا المرض في الجزائر، حيث عانت البلاد من هذا الوباء لمدة 157 عامًا[53].

خاتمة:

- ✓ نتج تذبذب تعداد السكان بين الارتفاع في بداية الحكم العثماني (القرن 16م) والانخفاض لاحقًا، خاصة في القرنين 17 و18، عن خلل في النمو الديموغرافي العام للجزائر، وقد تأثر هذا التذبذب بعوامل طبيعية وبشرية متعددة، منها الحروب والاضطرابات المحلية.
- ✓ أفضى انتشار الأوبئة، وعلى رأسها الطاعون الذي ضرب الجزائر مرات عدة، أبرزها في سنوات 1620 و1665 و1705، إلى تغيّر واضح في الهرم السكاني، حيث سُجل تراجع كبير في عدد السكان العاملين، خاصة فئة الشباب، مما أثّر على التوازن العمري والإنتاجي.
- ✓ ساهمت الوفيات المرتفعة والنزوح الداخلي، الناتج عن المجاعات والصراعات بين القبائل أو مع السلطات، في انخفاض الكثافة السكانية في عدد من المناطق، خصوصًا الريفية، وهو ما أثر على الاستغلال الأمثل للأراضي الزراعية والموارد الطبيعية.

✓ كان للتراجع الديموغرافي انعكاسات مباشرة على النشاط الاقتصادي، خاصة في القطاعات التي تعتمد على اليد العاملة مثل الزراعة والرعي. فقد عانت بعض المناطق من نقص الأيدي العاملة، مما أدى إلى انخفاض الإنتاج وتراجع المبادلات المحلية.

✓ أسهم تناقص السكان في إضعاف قدرة المجتمع على التكيف مع الكوارث الطبيعية، مثل الجفاف والفيضانات، والأزمات الاقتصادية، نظرًا لانخفاض العدد وغياب التوازن الداخلي بين الفئات السكانية من حيث العمر والقدرة على العمل.

✓ أدت الظروف الصحية والمعيشية القاسية، نتيجة غياب بنية تحتية صحية متطورة، وعدم توفر المياه النظيفة والتغذية المتوازنة، إلى إبطاء عمليات التنمية البشرية والعمرانية، مما جعل الجزائر تعاني من ركود سكاني طويل الأمد حتى نهاية العهد العثماني.

الهوامش:

---

[1] وُلد في 1 يناير 1772، وأنهى دراسته في عام 1791. في عام 1793، انضم إلى المدرسة العسكرية في مزيار برتبة ملازم، حيث كُلف بعدة مهام لخدمة بلاده. وبفضل كفاءته، ترقى إلى رتبة رائد وقاد كتيبة في 28 ديسمبر 1807. في 30 أبريل 1808، تم اختياره لتنفيذ مهمة تجسسية في الجزائر، لكنه توفي على يد الحشاشين في قرية البلاطا. أنظر: زهرة محجوبي، المخططات العسكرية الفرنسية لاحتلال الجزائر(1741م-1830م)، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، مج: 02، ع: 01، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري(الجزائر)، جانفي2020، ص103.

[2] ليلى خيراني، المرأة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني1818-1830م-دراسة مستقاة من مصادر أرشيفية-، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2012-2013، ص ص 56، 57.

[3] عرف علماء النفس الغريزة بأنها "استعداد فطري موروث في الإنسان، لا يتطلب التعلم، ويحفز الكائن على اتخاذ سلوك معين في مواقف محددة، مثل غريزة التملك وغريزة القتال."أنظر: رابح طيبي،

الهجرة غير الشرعية(الحراقة) في الجزائر من خلال الصحافة المكتوبة" دراسة تحليلية لجريدة الشروق اليومي" 1جانفي007-31ديسمبر007، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في علوم الاعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والاعلام، قسم الاعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص18.

[4]نجوى طوبال، قراءة في التطور الديمغرافي لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة مدارات تاريخية، Cognitive center for studies and research(الجزائر)، ع:01، ج:03، الجزائر، مارس2021، ص20.

[5]اندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، تر: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص42.

[6]أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، إذ كانت مقسمة إداريا إلى إيالات، والإيالات إلى سناجق، والسناجق إلى أقضية والأقضية إلى نواحي والنواحي إلى قرى. ينظر: سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص45.

[7]وهو القيد، وقد حدد مدلوله من خلال الاخذ، أي بمعنى الحجز، فالفرد الذي أسر يطلق عليه أسيرا، إذ لم يكن مصطلح الأسر وليد الفترة العثمانية إنما ورد في كتاب الله والأحاديث النبوية فقد طلب الرسول عليه الصلاة والسلام من المسلمين إطلاق سراح أسراهم في قوله:" **فُكُّوا العانِيَ-يعني الأسير**...". أنظر: عزيزة معطا الله والحاج صادوق، الاسرى والمعتقلون المغاربة لدى السلطة العثمانية في الجزائر1519-1830م "الجزائريون والتونسيون انموذجا"، مجلة المفكر، مج:05، ع:02، جامعة الجزائر2، 2021، ص255.

[8]حنيفي هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، ط:01، 2008، ص ص167، 168.

[9]نجوى طوبال، المرجع السابق، ص21.

[10]وُلد خير الدين بربروس عام 1470م في جزيرة مدلي ضمن الأرخبيل، لوالد تركي يُدعى يعقوب بن يوسف ووالدة أندلسية. نشأ نشأة إسلامية قوية، وكلفه أخوه عروج بإدارة جميع مناطق الشرق، حيث اتخذ من دلس مقرًا لإقامته وعاصمةً للشرق. توفي خير الدين بربروس في عام 1547م. أنظر: بسام العسلي، **خير الدين بربروس(والجهاد في البحر) 1470-1547م**، دار النفائس، ط:01، بيروت، 1970، ص ص 19-27، و عبد الجليل رحموني، العلاقة بين السلطة المركزية والبايليكات في الجزائر

العثمانية(1520-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة جيلالي اليابس-سيدي بلعباس، 2019-2020م، ص24.

[11]رابح كنتور، الجيش الإنكشاري في الجزائر بين1519و1830، أفكار وآفاق، جامعة الجزائر2-الجزائر، مج: 09، ع:02، جامعة الجزائر2، 2021، ص ص91، 92.

[12]علي العبيدي، **صفحات من تاريخ الجزائر(الوسيط/الحديث/المعاصر) دراسات تاريخية**، ج:1، النشر الجامعي الجديد نشر-طباعة-توزيع، الجزائر، 2020، ص312.

[13]نجوى طوبال، المرجع السابق، ص22.

[14]عرف المذهب الحنفي على أنه:" عبارة عن الآراء الإمام أبي حنيفة وأصحابه المجتهدين في المسائل الاجتهادية الفرعية، وتخريجات كبار العلماء من أتباعهم، بناء على قواعدهم وأصولهم، أو قياسا على مسائلهم وفروعهم". ينظر: أحمد بن محمد نصير الدين نقيب، **المذهب الحنفي (مراحله وطبقاته، ضوابطه ومصطلحاته، خصائصه ومؤلفاته)**، ج:1(معارف أساسية عن المذهب)، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط:1، الرياض، 2001، ص39.

[15]أمين محرز، **الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)**، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص141.

[16]سماها الأندلسيون البلدة الصغيرة.أنظر: مبروك بن صالح قارة، **مسار المدن والعمران بالجزائر دراسات في تاريخ المدن والتركيبة السكانية**، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، ط:01، الجزائر، 2017، ص 09.

[17]عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر1700-1830 مقاربة اجتماعية-اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص20.

[18]نجوى طوبال، المرجع السابق، ص23.

[19]كاملية دغموش وحمدود بن عمر، الوضع الصحي والمعيشي لبايلك الغرب الجزائري، الحوار المتوسطي، جامعة الجيلالي اليابس-سيدي بالعباس، مج:10، ع:02، جوان2019، ص338.

[20]عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني1519-1830م (مقاربة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، 2014-2015م، ص46.

[21]دغموش كاملية وحمدود بن عمر، المرجع السابق، ص338.

[22] عرفه الفيروز أبادي بأنه الطاعون، أو أي مرض عام يتسبب في إنتشار الأوبئة. وبالتالي، يمكن القول إن كل طاعون يُعتبر وباءً، لكن ليس كل وباء يُعتبر طاعونًا. بمعنى آخر، يشمل الوباء مجموعة متنوعة من الأمراض، من بينها الطاعون. أنظر، الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص1725. وبوحجرة عثمان، المرجع السابق، ص51.

[23]صليحة علامة، تاريخ الأوبئة في الجزائر(الطاعون-الجذري-اليفوس-الملاريا)، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية ، مج: 03، ع: 01، جامعة أبوبكر بلقايد-تلمسان(الجزائر)، جانفي2015، ص ص209، 210.

[24]عبد الجليل رحموني، اهتمامات المجلة الافريقية بتاريخ الجزائر العثمانية(1520م-1830م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2014م-2015، ص 127.

[25]فلة موساوي القشاعي، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج:01، ع:01، جامعة الجزائر2، د-س-ن، ص 145.

[26] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) ويليه قانون أسواق مدينة الجزائر، البصائر للنشر والتوزيع، ط: 03، الجزائر، 2012، ص ص51، 52.

[27]مؤيد محمود حمد المشهداني وسلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني1518-1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج: 05، ع: 16، جامعة تكرت، نيسان2013، ص433.

[28] أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره1800م-1830م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2010، ص ص84، 85.

[29]نجوى طوبال، المرجع السابق، ص24.

[30]فلة موساوي، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518-1871)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص52.

[31]سفيان فلاح وحمدادو بن عمر، الأوبئة في الجزائر العثمانية قراءة انثروبولوجية دينية في محتوى المصادر التاريخية، مجلة انثربولوجية للأديان، جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان، مج:18، ع:01، ص790.

[32]عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص128.

[33] محمد بن عثمان الكبير، باي الغرب، عُين بايًّا للولاية الوهرانية وكانت قاعدته في معسكر. كان له اهتمام كبير بالجانب الثقافي، حيث أسس المدرسة المحمدية وعين محمد بن عبد الله الجيلالي مديرًا لها. كما أنشأ المسجد الأعظم، وكان نشطًا في التأليف وتشجيع المؤلفين، إذ لم يقتصر دعمه على الحركة العلمية داخل البلاد فحسب، بل كان يمد طلاب العلم الملتحقين بالأزهر بمساعدات سنوية. شارك محمد بن عثمان الكبير في واقعة الحراش التي وقعت عام 1189 هـ، وقام بطرد الإسبان من وهران. توفي محمد الكبير بعد أيام من فتح وهران، أثناء وصوله إلى السائح بين خضرة كبير وقصير، وعين الداي ابنه عثمان بن محمد الكبير خلفًا له. أنظر: أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح وتق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص ص 65- 73 وصالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي**، دار الأممية للنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص173.

[34]عائشة غطاس، من اجل إعادة النظر في البنية الديمغرافية لمجتمع مدينة الجزائر، معطيات مستقاة من الوثائق المحلية، انسانيات، الجزائر، ع: 19-20، جانفي-جوان 2003، ص39.

[35]ناصر الدين سعيدوني،**النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) ويليه قانون أسواق مدينة الجزائر**، المرجع السابق، ص ص52، 53.

[36]أحمد توفيق المدني: **مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر1168-1246هـ/1754-1830م**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص51.

[37]عائشة غطاس، المرجع السابق، ص39.

[38]ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) ويليه قانون أسواق مدينة الجزائر**، المرجع السابق، ص ص52، 53.

[39] إهتم أدريان بيربروجر بجمع الوثائق والكتب والمخطوطات التي تأثرت بالاستعمار الفرنسي في الجزائر، حيث قام بجمعها من المواقع التي دمرها العسكريون، مثل المساجد والزوايا. استمر في رحلاته

عبر الجزائر حتى صدر قرار تأسيس المكتبة العامة في الجزائر العاصمة، حيث تم تعيينه محافظًا عليها في عام 1836. في نفس العام، شغل أيضًا منصب رئيس تحرير جريدة "المرشد الجزائري(Moniteur Algérien)وكان كاتبًا وأمين سر المارشال كلوزيل، الحاكم العام للجزائر. كما كان من مؤسسي الجمعية التاريخية الجزائرية والمجلة الأفريقية.(La Revue Africaine). أنظر: صديقي بلحاج، المكتبات الجزائرية في القطاع الوهراني خلال الفترة 1830م-1954م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الجزائر الثقافي والتربوي، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2011-2012، ص37. موسى شماخي إسماعيل ومعتوق جمال وعنصر عبد القادر، دور الرحالة الفرنسيين في تدعيم خلايا الاستعمار في الجزائر، مجلة الخلدونية، جامعة ابن خلدون- تيارت، 11جانفي2019، ص153.

[40]عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص129.

[41]Victor Collardot, Aperçu et Le climat d’Alger et quelques-unes de ses maladies, thesepréseulée et publiquement soutenue à la faculte de médecine de montpellier le25 juin1858, imprimerie. Critin et rue castel-Moton, montpellier, 1858, p68.

[42]يذكر محمد الصالح العنتري في كتابه **مجاعات قسنطينة** أنه في سنة1219هـ 1804-1805 خلال العهد العثماني وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بأهل بلد قسنطينة ووطنها ودام الحال لعدة سنوات متوالية وكان الوالي على البلاد عثمان باي. أنظر: صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تح وتق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص27، 28.

[43]ناصر الدين سعيدوني، **دراسات في الملكية العقارية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص369.

[44]محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص49.

[45]حمدان بن عثمان خوجة، **اتحاف المنصفين والادباء بمباحث الاحتراز عن الوباء**، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، الشرك الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص68.

[46]البقرة: الاية195.

[47]التوبة: الآية51.

[48]الأعراف: الآية 34

[49]محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص ص49، 50.

[50]عبد الجليل رحموني، المرجع السابق، ص 127.

[51]عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، ط:1، الجزائر، 2002، ص107.

[52]مولاي بالحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص39-48.

[53]نجوى طوبال، المرجع السابق، ص24.

تغييرات الخريطة السياسية لمملكة نوميديا من القرن 3ق.م- 46ق.م

The political Map of the Kingdom of Numidia Transformations Be tween the 3rd Century BCE and 46 .jc av

كابلي فاطمة*

جامعة مولود معمري – تيزي وزو

fatma .kabli@ ummto.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/02/08	2025/07/19	2025/07/31

الملخص:

شهدت الخريطة السياسية لمملكة نوميديا عديد التغيرات، ارتبطت بالتطورات الحاصلة على مسرح الاحداث ، و المتمثلة في الصراع الروماني القرطاجي في إطار الحروب البونيقية ، و التي انتهت بتدمير قرطاجة ،سنة 146 ق.م ، و أضحت مقاطعة رومانية .

إن أولى التغييرات السياسية كانت بقيام الملك ماسينيسا بتوحيد النوميديتين، سنة 203 ق.م ، وبوفاته سنة 148 ق.م، وخلافة أبنائه الثلاث، وانفراد مكبسا بالعرش، تبنى يوغرطة والذي دخل في صراع مرير مع أخويه بالتبني، ينتهي به المطاف لإعلان روما الحرب عليه، و تسليمه مكبلا إلى سولا بتواطئ من صهره بوخوس الأول، وبالتالي تتغير الخريطة السياسية بحصول الأخير على الجزء الغربي من نوميديا، ولعل التغيير سيطال المملكة، وذلك بعد هزيمة يوبا الأول في معركة تابسوس سنة 46 ق.م، بمكافئة المنتصرين فيها. ومن هنا نحاول معالجة الموضوع من خلال الإشكالية التالية: مراحل تغيير الخريطة السياسية لمملكة نوميديا ما بين القرن 3ق.م-46ق.م؟ والتي سنجيب عنها في النقاط الاتية:

- توحيد ماسينيسا للنوميديتين سنة 203 ق.م
- تغيير الخريطة السياسية عقب نهاية حرب يوغرطة
- تغيير الخريطة السياسية عقب هزيمة يوبا الأول

* المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحية: الخريطة السياسية؛ نوميديا ؛ ماسينيسا؛ يوغرطة؛ يوبا الأول.

Abstract:

The political landscape of the Kingdom of Numidia witnessed numerous transformations, shaped by the evolving events on the historical stage. Rome played a crucial role as a witness and participant in these changes, having established its presence in a significant part of the region following the destruction of Carthage in 146 av.jc. The first major political shift occurred when King Masinissa unified the two Numidias in 203 av.jc. After his death in 148 BCE, his three sons inherited the throne, with Micipsa ultimately ruling alone. However, his adopted son, Jugurtha, entered into a bitter conflict with his stepbrothers, culminating in Rome declaring war against him. Eventually, he was handed over in chains to Sulla, following the betrayal of his father-in-law, Bocchus I, who was subsequently rewarded with control over the western part of Numidia. Further changes reshaped the kingdom after King Juba I was defeated in the Battle of Thapsus in 46 av.jc, leading to another significant reconfiguration of Numidia's political map. This study explores the following key questions : How did the political map of Numidia evolve between the 3rd century av.jc and 46 av.jc ? The discussion is structured around three main phases :

- Masinissa's Unification of the Two Numidias in 203 av.jc
- Political Changes Following the End of the Jugurthine War
- Political Transformations After the Defeat of Juba I.

-the study aims to track the changes that have occurred on the geopolitical map of the kingdom of Numidia during the aforementioned period, and the extent of the impact on the futur of the kingdom in light of the Roman intervention and the bad faith of the enemy brothers which rome reaped its fruits.

Key words: political Map; Numidia; Masinissa ; Jugurtha ; Juba I .

مقدمة:

شهدت الخريطة السياسية لمملكة نوميديا عديد التغييرات والتي أعقبت قيام الملك ماسينيسا بتوحيد النوميدين (الماسيل والمازسيل)، إثر تصفية حساباته مع غريمه الملك صفاكس ملك نوميديا الغربية، وذلك سنة203 ق.م، وأضحى الملك سيدا على المملكة، وقد شرع في التوسعات على حساب قرطاجة مستفيدا من أحد بنود معاهدة زاما والتي تسمح له باسترجاع أراضيه وأراضي أجداده دون تحديد الحدود الجغرافية لها، و لعل الأحداث الحاصلة ورد الفعل القرطاجي على توسعات الملك عجل بسقوطها ، بإعلان روما عليها الحرب البونيقية الثالثة سنة 149 ق.م ، بسبب اختراقها أحد البنود والتي "تمنعها من إعلان الحرب في إفريقيا أو خارجها دون إذن من روما" ، ومنه أضحت قرطاجة مقاطعة رومانية سنة 146ق.م .

لكن سرعان ما طرأت تغييرات جديدة على المملكة، وذلك عقب وفاة الملك ماسينيسا سنة 148 ق.م ، وتقسيم المملكة بين أبنائه الثلاث، ولعل تبني مكبسا ليوغرطة والأحداث التي أعقبت صراعه مع أبناء عمه، و وإعلان روما الحرب عليه، ينتهي به المطاف إلى اقتياده مكبلا إلى روما بتواطؤ من صهره بوخوس الأول، وبالتالي يستفيد الأخير من اقتطاع الجزء الغربي من المملكة، و بذلك تطرأ تغييرات على الخريطة مرة أخرى، والتي ستطال بعد هزيمة يوبا الأول في معركة تابسوس سنة 46 ق.م على يد يوليوس قيصر، باستفادة المنتصرين، ويتحول الجزء الشرقي إلى مقاطعة رومانية باسم إفريقية الجديدة ، وذلك تمييزا عن إفريقية القديمة، مع استفادة كل من ستيوس وبوخوس الثاني من أجزاء أخرى. ومن هذا المنطلق نطرح الإشكالية التالية: مراحل تغيير الخريطة السياسية لمملكة نوميديا ما بين القرن 3ق.م-46ق.م؟ والتي سنجيب عنها في النقاط الاتية:

- توحيد ماسينيسا للنوميديتين سنة 203 ق.م
- تغيير الخريطة السياسية عقب نهاية حرب يوغرطة

تغيير الخريطة السياسية عقب هزيمة يوبا الأول سنة 46ق.م.

تهدف الدراسة إلى تتبع التغيرات السياسية التي طالت مملكة نوميديا، مما أثر على مستقبلها، ولعل تلاعب روما ببعض الشخصيات المحلية مستغلة سوء نية الإخوة الأعداء كثيرا ما حصدت من خلالها ثمار الغدر، وفتحت الأبواب على مصرعيها للتوسع التدريجي في المنطقة.

– وعليه فكان لزاما تتبع المنهج التاريخي من خلال تتبع الأحداث التاريخية المرتبطة بالمملكة، والتي أدت إلى تغيير الخريطة السياسية عبر مختلف المراحل، و التي انتهت لصالح روما ، فضلا عن المنهج الوصفي من خلال وصف مجريات الأحداث المرتبطة سواء بأزمة العرش النوميدي في عهد يوغرطة ، و لعل تطور الاحداث دفع بروما بإعلان حرب عليه حملت اسمعه، (حرب يوغرطة) ، فضلا عن معركة تابسوس سنة46 ق.م في فترة حكم يوبا الأول ، و التي انتهت بتحول الجزء الشرقي للمملكة إلى مقاطعة رومانية (إفريقية الجديدة) .

1 – **توحيد ماسينيسا للنوميديتين (الشرقية و الغربية) سنة 203 ق.م** :

يبدو أن العلاقات القرطاجية [1] النوميدية سرعان ما تتخذ مسارا آخر، وذلك سنة 206 ق.م، من خلال حدوث أزمة العرش، حيث أنه بوفاة غايا ملك نوميديا الشرقية[2] فحسب القاعدة المعمول بها لدى النوميديين ينتقل الحكم إلى الأكبر سنا في الأسرة المالكة ، فتولى العرش أزلاكن الذي توفي في نفس السنة، وقد ترك ابنيه كابوسا الذي قتل في إحدى المعارك [3]، ومن المفروض فإن العرش سيكون من نصيب ماسينيسا، لكن الحكم انتقل إلى لاكومازن بمساندة مازوطيل[4]، ولكي يكسب الدعم القرطاجي تزوج مازوطيل من ابنة أخ حنبعل والتي كانت أرملة لأزلاكن [5]، مما دفع ماسينيسا بالعودة لاسترجاع عرشه المنهوب[6]، وذلك من خلال المرور بمملكة موريطانيا[7]، وقد ساعده ملكها (باغا) لتسهيل العبور إلى مملكة المازسيل، وفعلا كان له ذلك [8]، وتمكن من الوصول

إلى صفاكس (ملك نوميديا الغربية)[9]، وتحقيق النصر [10]. فما كان على ماسينيسا إلا واستعادة العرش، وكان له ذلك في أعقاب هزيمة صفاكس، وقد دعم من قبل سكيبيو باسم مجلس الشيوخ الروماني [11]، ومن هنا تظهر ملامح تغيير الخريطة السياسية للمملكة والتي أعقبت توحيدها من قبل الملك ماسينيسا سنة 203 ق.م، كما شارك في وقائع الحرب البونيقية الثانية، حيث لعب دورا كبيرا في معركة السهول الكبرى في نفس السنة[12]، كما كان سدا منيعا لسكيبيو في معركة زاما والتي دخلها بجيش ضخم ساهم في إحرازه الانتصار، واضطرت قرطاجة قبول شروط معاهدة زاما سنة 201ق.م[13]، وقد استغل الملك ماسينيسا إحدى بنودها والذي يخول له استرجاع أملاكه وممتلكات أجداده في التوسع على حساب قرطاجة.

وفي ظل المستجدات الحاصلة، ظهرت تجليات الصداقة التي ربطت الملك ماسينيسا بروما من خلال المساعدات المتتالية التي أرسلها لهم في أعقاب صراعها الخارجي مع كل من ملك مقدونيا فليب الخامس[14]،و الملك السوري أنطيوخوس الثالث[15]، رغم محاولة إبن صفاكس كسب الصداقة الرومانية له. والتي جاءت على النحو التالي: -أرسل ألف جندي، و حوالي مئتان ألف مكيال من القمح، و مثله من الشعير في حربها ضد فليب الخامس ملك مقدونيا سنة 200ق.م [16]، كما أرسل حوالي خمسمائة جندي، و عشرين فيلا ، فضلا عن خمس مئة ألف مكيال من القمح، و ثلاثمئة ألف من الشعير للرومان المتواجدين ببلاد الإغريق لمحاربة أنطيوخوس الثالث سنة 191 ق.م[17]

يبدو جليا أن توسعات الملك ماسينيسا و نفاذ صبر قرطاجة، هي التي دفعت بروما للتحرك من خلال إرسال كاتو الأكبر[18] والذي تمكن من إقناع مجلس الشيوخ الروماني بالقضاء على قرطاجة [19]، وهو ما تم فعلا عقب اختراقها لأحد البنود التي تمنعها من إعلان الحرب في إفريقيا أو خارجها دون إذن من روما، ومنه تنطفئ شمعة قرطاجة، وتحولت أراضيها إلى مقاطعة رومانية سنة 146 ق.م.

2- تغيير الخريطة السياسية عقب نهاية حرب يوغرطة:

بوفاة الملك ماسينيسا سنة 148 ق.م أضحت مملكة نوميديا مقسمة بين أبنائه الثلاث، الذين شاركوا حكم المملكة النوميدية ، وهو ما يوحي إلى تغيير نظام الحكم المعتاد، مما يطرح التساؤل في الدواعي التي دفعت بماسينيسا إلى تغييره، أم لروما دخل في ذلك بحكم صداقته لها؟

على كل ، فإن الوضع لم يدم طويلا، وذلك بوفاة كل من غلوسة، ومصطنبعل، وانفراد مكبسا [20]، والذي سار على منوال والده في توريث العرش، إذ قسم مملكته بين ابنيه أذزربعل و همبصال وابن أخيه يوغرطة[21]الذي كان قد تبناه [22] ، وقد دب الخلاف بينهم دفع ثمنه همبصال[23]، وحاول أذربعل الانتقام لأخيه، لكنه فشل، فاستنجد بروما [24] ، وفي نفس الوقت يرسل يوغرطة مبعوثين لروما للدفاع عنه[25]، فتظهر روما بثوب الحكم بينهما، ويتضح ذلك من خلال إيفاد مجلس شيوخها سنة 117 ق.م لجنة برئاسة لوكيوس أو بيميوس قسمت نوميديا بين أذربعل ويوغرطة، مانحة أذربعل الجزء الشرقي، في حين تحصل يوغرطة على الجزء الغربي [26]، وهو ما يؤكد حرص روما على مصالحها في المنطقة ، في ظل وجود شخصية تبدو أنها مختلفة تماما عن أذربعل المسالم، لذلك فضلت مجاورتها له، وإبعاد يوغرطة قدر المستطاع .

-يبدو أن روما لم تخطئ في حساباتها و منحها الجزء الشرقي لأذربعل، حيث سرعان ما أعلن يوغرطة الحرب عليه [27]، متذرعا بمحاولة اغتياله ، بالرغم من قيام يوغرطة بمحاصرة سيرتا رغم شكاوى أذزربعل المتكررة لمجلس الشيوخ الروماني، إلا أن ذلك لم يشفع له، أمام تأكد يوغرطة أن كل شيء يشترى في روما [28] .

- يذكر أن الجالية الرومانية المقيمة في سيرتا قد نصحت أذزربعل أن يسلم نفسه و المدينة ليوغرطة بشرط أن يبقيه حيا، لكن يوغرطة أصر على إنهاء أمره مع كل الذين حملوا السلاح ضده [29]، بما فيها الجالية الرومانية المقيمة بسيرتا ، مما جعل روما تتحرك للثأر

والقضاء على يوغرطة، وقد جهزت جيشا بقيادة القنصل بستيا سنة 111 ق.م [30]، بهذا بدأت حربا طويلة استخدم فيها يوغرطة كل الوسائل، وحارب عديد القادة و القناصل وأجبرهم على إبرام السلم معه في عديد المرات[31].

هذا و قد تسببت استراتيجية يوغرطة في تغيير روما لقادتها، وتتغير معهم طريقة المواجهة إلا أن ذلك لم يشفع أمام بسالة يوغرطة ، على غرار متلوس الذي إعتمد على سياسة الأرض المحروقة من خلال نهب الحقول وحرق الحصون والمدن[32] ، وبعد فشل الرومان أمام زاما حاول استمالة أحد رجاله المقربين من خلال بوملكار[33] إلا أن تفطن يوغرطة جعله يستعجل، لإنهاء حياته [34]، ويواصل يوغرطة في محاربة عديد القادة الرومان على غرار ماريوس[35] والذي عرف بحقده للحزب الأرستقراطي، وكان متلوس قد أخذه معه ضمن ضباطه المساعدين، وقد تمكن متلوس في آخر أيام قيادته لحرب يوغرطة الاستلاء على عديد المدن، وإلحاق الهزائم به، إلا أن إسناد الحملة لماريوس أضعف الروح المعنوية لمتلوس، خصوصا بعد وصول كوكوبة من الفرسان لتدعيم ماريوس منهم سيلا [36] وقد إعتمد القادة الرومان على سياسة فرق تسد، فالبر غم من تحالف يوغرطة مع صهره ملك موريطانيا بوخوس الأول [37] ، لكن ذلك لم يدم طويلا حيث سلمه إلى سولا[38]، والذي قاده إلى ماريوس ، وقد أقيد يوغرطة بالأغلال إلى روما ، وأضحى ماريوس قنصلا و رغم غيابه[39] .

– وهنا فضلت روما عدم الاستلاء على المملكة لانشغالها بتهديدات خارجية أخرى من خلال شعوب التيوتون والكمبري [40]، لذلك اكتفت بتجزئتها من أجل إضعافها ، وهو إيذان بإحداث تغييرات على الخريطة السياسية لنوميديا، حيث منحت الملك بوخوس الأول الجزء الغربي من نوميديا حتى صلداي [41]، ونصبت شقيق يوغرطة – غودا – على الجزء الشرقي [42]، وبين موريطانيا ومملكة ومملكة غودا أقامت مملكة نوميدية ثانية، ذكر

شيشرون ملكها ماستانروسس[43]، و بهذا التنظيم فتحت المجال أمام الفئة الطموحة من التجار، وغيرهم من الباحثين عن الثروة [44] .

هذا، وقد أضحت المنطقة ملتجئا لعديد القادة الرومان الفارين من روما بسبب الحروب الأهلية على غرار ماريوس والذي فر من سيلا، في تلك الفترة كانت نوميديا تحت حكم همبصال الثاني، والذي ساند أنصار سولا، مما كلفه الإبعاد عن العرش من طرف هيرباص الذي وقف إلى جانب أتباع ماريوس [45]، وعاد بعدها إلى روما إثر تغيير الأوضاع لصالحه، وحل محله ممثلو التيار الأرستقراطي الذين فروا خوفا من ماريوس ومن أبرزهم متلوس بيوس [46]، لكن سرعان ما طردوا من قبل حاكم مقاطعة إفريقية (فابيوس هادريانوس)، لكن الأمر لم يدم طويلا حيث عاد سيلا إلى روما سنة 83 ق.م، وعاد أنصار ماريوس إلى إفريقيا على رأسهم دومسيوس أهنوبربوس [47]، والذي دعم هيرباص، مما مكنه من استرجاع عرشه من همبصال [48]. إلا أن الأحداث التي أعقبت انسحاب هيرباص إلى العاصمة بولا ريجيا واغتياله سنة 81 ق.م، أعاد الأمور إلى ما كانت عليه ، إذ استرجع همبصال الثاني عرشه، بينما تولى عرش نوميديا الغربية ماستانسوزس[49]

3-تغيير الخريطة السياسية عقب هزيمة يوبا الأول:

وفي الوقت الذي شهدت فيه روما صراعا بين كل من يوليوس قيصر[50] وبومي الأكبر [51] فقد امتد لهيبه إلى شمال إفريقيا، وفي هذه الفترة كان يوبا الأول [52] على عرش نوميديا فبعد مقتل بومبي في معركة فارسالوس سنة 48 ق .م ، فر عدد كبير من أنصاره إلى إفريقيا من بينهم كاتو الاوتيكي[53] و الذي عبر المدن الثلاثة برا خلال ثلاثين يوما، وهو يقود جيشا قوامه أكثر من عشرة آلاف رجل، إلى جانب متلوس سكيبيو، وقد عمل الجميع على جمع قواتهم وتنظيم أنفسهم ، وتمكنوا خلال فترة وجيزة من جمع قوات كبيرة [54] دفع بقيصر إلى ملاحقتهم و الانتصار عليهم في إحدى المعارك ، التي تبدو غامضة ، والتي وصفت من قبل عديد المؤرخين منهم كارثي[55] .

- يذكر أن يوبا الأول قد وقف إلى جانب أنصار بومبي مقابل استرجاع مقاطعة إفريقية[56]، و عندما أدرك قيصر خطورة الوضع عمل على التقرب من ملكي موريطانيا (بوخوس الثاني، و بوغود) [57]، واعتبر يوبا عدوا للشعب الروماني [58].

وفي الوقت الذي أعلن فيه أبناء بوخوس تحالفهما مع الشعب الروماني منح لهما مملكة يوبا .حتى يهاجمانه من الخلف، وبهذا يعرقلان تقديم المساعدة لأنصار بومبي [59].

وعموما فقد نزل قيصر بحضر موت رفقة ثلاثة آلاف رجل من المشاة، ومئة وخمسين فارسا، ولم يجدوا أية صعوبة في الرسو فيها، وذلك في أكتوبر سنة 47 ق.م[60]، وقد حاول الاستلاء عليها، لكن افتقاده إلى القوات الازمة، بالإضافة إلى حصانة المدينة حال دون ذلك[61]. فاضطر إلى التراجع إلى روسبينا[62] بعد إخضاعه للمطة[63]. والتي ترك فيها حامية من ست كتائب تحت قيادة سازيرنا [64]، لكن سرعان ما قام كل من لا بينوس ، و الاخوين باكيديوس بمهاجمته على رأس أعداد هائلة من الخيالة ، مختلطة بالمشاة النوميديين الخفاف ، ورماة النبال الراجلين [65] ولم يتخلص قيصر من هذا الوضع إلا عن طريق استلاء سالستيوس[66] على جزيرة قرقنة، والتي كانت تتوفر على كمية كبيرة من المؤونة [67]، كما انظم ستيوس [68]، إلى بوخوس، واحتل قيرطا [69] . مما دفع يوبا لإسراع لنجدة مملكته عوض فقدانها ، خاصة بعدما حمل الجيتول[70] السلاح ضده [71].

- هذا، وقد تمكن قيصر من الوصول إلى أغار [72]، كما استولى على سرسورة [73]، مما دفع بيوبا بالاتجاه شرقا نحو معسكر سكيبيو[74] ليرهب بحضوره جيش قيصر، بعدما ترك القائد سابورا لمواجهة ستيوس، مما أعاد الشجاعة لسكيبيو، ورفع من معنوياته [75]، لكن سرعان ما وصل الدعم لقيصر، مما جعله يستعد لمعركة تابسوس، والتي انتصر فيها . حيث قتل عشرة آلاف رجل، وهزم الباقي، ولم يفقد سوى خمسين جنديا ، وبعض الجرحى حسب ما أضافه نفس المصدر [76]، وبانتصار قيصر، شرعت المدن في الانضمام إليه [77]،

في حين هلك سكيبيو، وانتحر كاتو في أوتيكا [78]، كما قتل سابورا من قبل ستيوس [79]، أما يوبا فقد انتحر بعدما أغلقت الأبواب في وجهه [80] .

– و بانتحاره حول الجزء الشرقي من مملكتي يوبا الأول و ماسينيسا الثاني[81] إلى ولاية رومانية عرفت بمقاطعة إفريقية الجديدة تمييزا عن إفريقية القديمة [82] ، ووضع على رأسها سالستيوس بصفته بر وقنصل مزود بكافة الصلاحيات[83]، أما الجزء الغربي فقد قسم بين بوخوس الثاني وستيوس رفقة جنوده المرتزقة الايطاليين والاسبان و الموريين ، جزاء مساعدتهم لقيصر، فمد الأول الحدود من وادي الصومام إلى وادي أمبساقا (الوادي الكبير)[84] بينما أصبح ستيوس سيدا على عاصمة يوبا الأول[85]، وقام بإنشاء عديد المستوطنات في المجال الجغرافي لسيرتا و ضواحيها [86] (colonia cirta sittianorum)

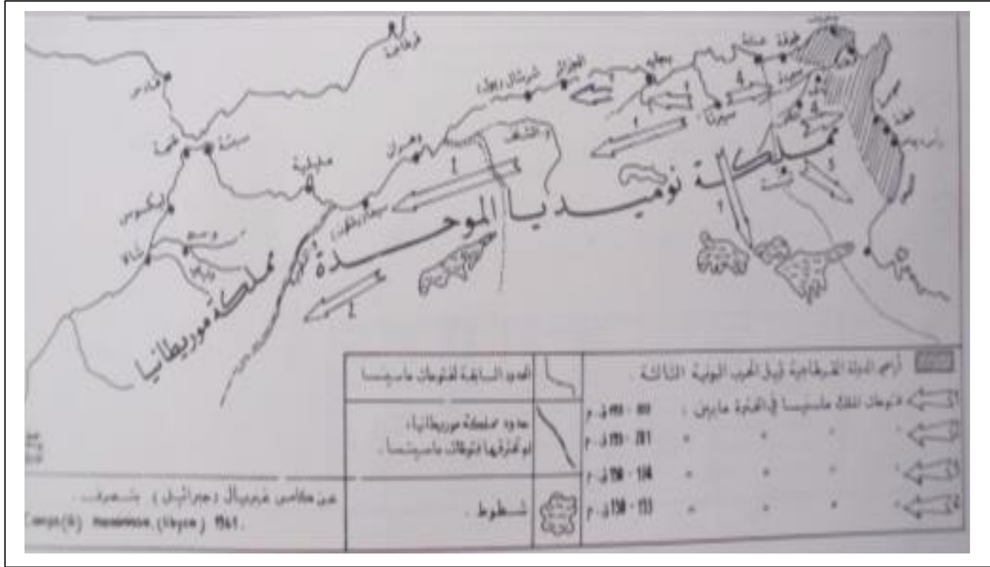
ومن هنا تندثر المملكة النوميدية فرغم العمل الذي قام به أرابيون إبن ماسينيسا الثاني[87] و تمكينه من استرجاع مملكة نوميديا [88] بعد قيامه بقتل ستيوس سنة 44 ق.م ، لإشارة أنه قد سبق لأرابيون الفرار إلى إسبانيا بعد معركة تابسوس سنة 46 ق.م ، وعاد بعد وفاة قيصر إلى نوميديا لاسترجاع مملكة أبيه [89] وذلك عام 44 ق.م[90]. إلى جانب إبعاده لبوخوس من الأراضي التي تحصل عليها كمكافئة بعد معركة تابسوس [91]، لكن طموحه لم يدم طويلا، حيث تعرض للهزيمة من قبل حاكم الولاية الرومانية الجديدة سكتيوس سنة 40 ق.م [92] .

خاتمة:

شكلت منطقة بلاد المغرب القديم بؤرة توتر وصراع بين عديد الشخصيات المحلية والتي وجدت نفسها مرتبطة في الصراع القائم أنذاك ، ولعل سوء نية الاخوة الأعداء قد أظهرت تجلياتها على مستقبل المنطقة عموما، ونوميديا بصفة خاصة، فبالرغم من سعي الملك ماسينيسا رفع شعار إفريقيا لأفارقه ،إلا أن الاحداث اللاحقة عجلت بتقسيم المملكة

لأكثر من مرة من خلال تغيير الخريطة السياسية لها، و التي إنتهى المطاف بها لأن يتحول الجزء الشرقي منها إلى مقاطعة رومانية باسم إفريقية الجديدة.

الشكل 01



خريطة سياسية لبلاد المغرب في الفترة ما بين الحربين البونيتين الثانية و الثالثة 202– 149 ق.م.

المرجع: شنيتي (م. البشير)، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق.م– 40م)، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 164.

الهوامش:

1 – قرطاجة: تأسست قرطاجة سنة 814 ق.م وفق أسطورة الاميرة عليسا ، و التي فرت من شقيقها بغماليون بكنوزها بعدما قام شقيقها بقتل صهره . ينظر: حارش (م. الهادي)، التاريخ المغاربي القديم، السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2014، ص ص 15- 19.

2 – نوميديا الشرقية (الماسيل): شملت الشرق الجزائري ، وشمال تونس ما عدى أراضي قرطاجة ، عاصمتها قيرطا .ينظر:

غانم محمد الصغير، المملكة النوميدية والحضارة البونية، د.ط، دار الهدى، الجزائر، د. ت، ص 50.

3- Tite- Live, histoire Romaine, publiée par C.L. F Panckoucke, traduction nouvelle par M. A. A. G .Liez, paris, 1833, livre XXIX, 29.

4 –كومبس (غ)، في أصول البربر ، ما سينيسا أو بدايات التاريخ، ترجمة و تحقيق محمد العربي عقون، ط2، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر، 2012، ص 215.

5- Tite- Live, xxix, 29.

6 - حارش (م. الهادي)، التاريخ المغاربي...المرجع السابق، ص 90.

7- مملكة موريطانيا: تقع ما بين المحيط الأطلسي غربا إلى وادي ملوية شرقا ، و الذي يفصل مملكة المور عن مملكة المازسيل، إلى جانب أعمدة هرقل شمالا، في حين كانت الحدود الجنوبية متغيرة، استخدم الرومان التسمية للدلالة على مملكة بوخوس و أبنائه . و فيما يتعلق بأصل التسمية فيرى سالستيوس أن المور نتج إثر امتزاج الفرس بالجيتول. ينظر: حارش (م. الهادي)، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر ، و بلدان المغرب في العصور القديمة ، دار هومة للنشر و التوزيع ، الجزائر، 2013، ص 36، و كذا: سالستيوس، الحرب اليوغرطية(الحرب ضد يوغرطة)، ترجمة محمد المبروك الذويب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، 2007، فقرة 18.

8 - Tite - live, xxix, 30,3

9- ibid, xxix, 30, 6.

10- ibid, xxix, 30, 9, 11, 12.

11- كومبس (غ)، المرجع السابق، ص 223.

12- مضوي (خ)، " من سير ملوك الجزائر القديمة: الملك النوميدي ماسينيسا 238- 148 ق.م)، مجلة عصور الجديدة،مجلد11، العدد1، 2021، ص 15.

13- حول بنود معاهدة زاما ينظر:

Dion Cassius, histoire Romaine, traduit par E. Gros, tome2, libraire Firmin Didot frères, Paris, 1848, fragment de livre xxvi, 219.

14 – فليب الخامس: إعتلى عرش الدولة المقدونية عام 220ق.م، أدرك الخطر الكبير الذي تتعرض له البلاد بسبب الوجود الروماني في منطقة البلقان ، فانتهز فرصة نشوب الحرب بين روما و قرطاجة ، و تحالف مع حنبعل، فردت روما بالتحالف مع أعدائه في بلاد اليونان وآسيا الصغرى في

إطار ما يعرف باسم الحرب المقدونية الاولى. ينظر : أبو اليسر فرح، الشرق الأدنى في العصرين الهلنستي و الروماني ، ط1، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، مصر، 2002، ص 66.

15- أنطيوخوس الثالث (ميغاس): هو ملك سوريا(223- 187 ق.م)، من السلالة السلوقية ،عرف بإنجازاته العديدة ، بدأ حكمه بالمجد ، وانتهى بالخيبة، حيث صمم في التوسع غربا عملا بنصيحة حنبعل الملتجئ إليه لكنه أخفق حيث خسر الاناضول، واضطر إلى تسليم أسطوله . حول الشخصية ينظر: فادية محمد أبو بكر، التاريخ السياسي و الحضاري لمصر في عصر البطالمة ، دار المعرفة الجامعية، مصر،2006، ص ص 368- 369. .

16- Tite – Live, XXXI, 10- 11

17- ibid , XXXVI, 1- 3-4- 8.

18- كاتو الأكبر: هو ماريوس بوركيوس كاتو، ولد بمدينة توسكلوم الرومانية سنة 234 ق.م، ينتمي إلى الطبقة العامة ، اشتغل عدة مناصب على رأسها قنصل عام 195 ق.م ، عرف بكاتو الرقيب ،كما كان خطيبا و مبدعا. ينظر:

Plutarque, les vies des hommes…... vie de Caton le censeur, 1, 2, 25, 40….

19- عند عودة كاتو إلى روما ، عرض على مجلس الشيوخ حبات التين التي كان قد جلبها معه من إفريقية، و التي أبهرت السيناتو، (نوعية و جمال الحبات) ، و من تم تأكدت روما من أهمية المنطقة ، و قال كاتو كلمته الشهيرة " لا بد أن تدمر قرطاجة"، و فعلا كان ذلك، دون أن يكتب لكاتو أن يشهد ذلك ، حيث أدركه الموت، ينظر:

:Plutarque, vie de Caton le censeur, 41, 42.

20- سالستيوس، الحرب اليوغرطية (الحرب ضد يوغرطة)، ترجمة محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، 2007، فقرة05.

21- يوغرطة : وصفه سالستيوس بأنه كان متميزا منذ شبابه ، منذ تمتع جسد قوي ، ملامح جميلة ، عقل ثاقب، مارس الفروسية ، رمي الرمح ، خصص وقتا كبيرا للصيد ، وقليلا ما يتحدث عن نفسه ، أرسله عمه مكبسا على رأس جيش خلال حرب نومانتيا في إسبانيا ، أثنى عليه بوبليوس سكيبيو ، فتبناه مكيبسا وجعله وريثا مع أبنائه، عرف بتحرشاته ضد أخويه بالتبني ، وجد نفسه وجها لوجه أمام روما في حرب حملت اسمه، وصفه سالستيوس أنه كان مخيفا في حضوره و غيابه ، رهيبا في السلم و الحرب ، نصب له كمين و سلم إلى سيلا ، و الذي قاده إلى ماريوس

أواخر سنة 105 ق.م .ينظر: سالستيوس، الحرب ضد يوغرطة، المصدر السابق، فقرات 06، 7، 8، 9....، وكذا: حارش (م. الهادي)، التطور السياسي و الاقتصادي منذ اعتلاء ماسينيسا العرش ، إلى وفاة يوبا الأول (203- 46 ق.م)، دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع ، الجزائر، 2014،ص ص 47- 60

22- قرر مكبسا أن يعرضه لأخطار لا سيما أن يوغرطة كان جاهزا للمهام و متعطشا للمجد العسكري ، لذلك أرسله عمه على رأس جيش من المشاة و الفرسان إلى حرب نومانتيا بإسبانيا ، بالرغم أنه كان يأمل أن تقضي عليه شجاعته أو وحشية الأعداء عليه ، لكن أبان عن شجاعة وإمكانيات جعله يحظى بثناء كبير من قبل بوبليوس سكيبيو، جعل منه وريثا رفقة ابنيه أذزربعل و همبصال. ينظر: سالستيوس، الحرب اليوغرطية ، المصدر السابق ، فقرات 7، 8، 9.

23 -كان همبصال الذي كان الأصغر سنا و مطغطرسا يحتقر يوغرطة منذ وقت سابق بسبب وضاعة نسبه، و قد بدأت المشاكل بمجرد وفاة مكبسا ، دفع ثمنه همبصال . ينظر : سالستيوس، المصدر السابق، فقرة 12.

24 - نفسه فقرة 13

25 - نفسه فقرة 13، 14

26 - نفسه ، فقرة 16.

27 - أذزربعل: هو الابن الثاني لمكبسا إلى جانب همبصال ، دخل في صراع مع يوغرطة الذي كان قد تبناه والده ، و جعله وريثا معه ، وصف بأنه شخصية مسالمة ، وأنه كان يخاف أكثر مما يخيف، ويتجلى هذا في كثرة الشكاوى التي كان يودعها لدى الرومان بعد اغتيال شقيقه، و التي بادرت إلى تقسيم المملكة بينهما ، ينظر: سالستيوس ، الحرب ضد يوغرطة...المصدر السابق، فقرات 20، 25، و كذا: حارش (م. الهادي)، مملكة نوميديا، دراسة حضارية منذ أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر، 2013، ، ص ص 22- 26.

28 - نفسه، فقرات 20- 21.

29 – نفسه ، فقرة 26.

30 – بعد أن شعر مجلس الشيوخ الروماني بالخوف قرر وفق قانون سمبرونيوس أن تكون نوميديا و إيطاليا مقاطعات للقناصل الذين سينتخبهم، و قد خصصت نوميديا للقنصل لوكيوس كالبورينوس بستيا ، ينظر: كايوس سالستيوس كريسبوس، المصدر السابق، فقرة 27.

31– بشاري (م . الحبيب)، " علاقة روما بالممالك الافريقية بعد زوال قرطاجة "، دراسات في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، العدد19، جوان2012، ص53.

32– كايوس سالستيوس، المصدر السابق، فقرة 54.

33– بوملكار: أحد قادة يوغرطة ، و الذي عرض عليه تسليم يوغرطة نظيرا العفو عنه بعد ارتكابه لجريمة قتل مسيفا ، تغيرت نظرته تجاه يوغرطة ، و أضحى يشك فيه ، و قرر رفقة أحد رجال يوغرطة الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء و المدعو نابدالسا التخلص منه ، لكن يوغرطة يتفطن للمؤامرة بفضل أحد الكتاب، أدى إلى اغتياله من قبل يوغرطة ، ينظر: كايوس سالستيوس، المصدر السابق، فقرات 70– 71

34– كايوس سالستيوس ، المصدر السابق ، فقرات 61– 62– 70– 71.

35– جايوس ماريوس : ولد من عائلة بسيطة ، كانت حملاته الأولى إلى إسبانيا، لازم متيلوس في إفريقيا ، تنبأ له الكاهن في أوتيكا أنه ينتظره مستقبل زاهر ، فطمع في أن يصبح قنصلا ، لكن بالرغم من صفاته و فنياته العسكرية و سيطرته عن النفس أمام الرشاوي إلا أن نسبه حال دون ذلك لكونه لا ينحدر من أسرة عريقة، أنتخب قنصلا وقائدا للجيوش الرومانية بعد تنحية متيلوس، و أسندت إليه نوميديا، ينظر كايوس سالستيوس، المصدر السابق، فقرات 63، 64، 81، 84، 86

وكذا:

Plutarque, les vies des hommes illustres, traduit par Ricard Didier, nouvelle édition, tome 7, au Bureau des éditeurs, paris, 1830, vie de Marius, 1- 2…..

36 – بوصبيع (ع)، " حرب يوغرطة ودورها في بزوغ نجم القائد ماريوس الرجل الجديد في روما "، مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية ، المجلد5، العدد20، 2019، ص ص 403– 404.

37 – بوخوس الأول: هو ملك مملكة موريطانيا ، ساعد الرومان في القبض على يوغرطة ، كافأته روما بمنحها له الجزء الغربي من نوميديا ، توفي حوالي 80 ق.م ، و ترك ولدين اقتسما المملكة

بعده . ينظر : غانم (م. الصغير)، المملكة النوميدية ، و الحضارة البونية ، ط1، الجزائر ، 1998، ص 113.

38- سيلا: هو لوكيوس كورنيليوس سولا، ينحدر من عائلة كورنيليا الأرستقراطية ، عين كستورا ، ثم نائبا عسكريا ، ارتقى في مختلف الرتب و الوظائف العسكرية ، تنقل إلى إفريقيا رفقة ماريوس من أجل التصدي ليوغرطة الذي كان متحالفا مع بوخوس الأول ، أتقن اللغتين الاغريقية و اللاتينية ، تمتع سولا بعقل ثاقب ، يميل الى الذات ، لكنه يفضل المجد ، يقضي وقت فراغه في حياة الطرف ، كان بليغا و ذكيا، اعتزل الجانبين السياسي و العسكري بحلول 79ق.م، وتفرغ للكتابة و الصيد ، للمزيد ينظر: كايوس سالستيوس ، المصدر السابق، فقرات 95- ، 96 و كذا:
Plutarque, les vies des hommes illustres, tome 7, vie de Sylla, 3- 7.

39 – كايوس سالستيوس، المصدر السابق ، فقرات 113-114

40 - يذكر أنه في عام 113ق.م تدفقت من الشمال قبائل جرمانية ال بقيادة قبيلتي التوتون و الكمبري ، حيث دفعتها الظروف القاسية بالزحف اتجاه إيطاليا في عربات مغطاة بحوالي ثلاث مئة من المحاربين رفقة زوجاتهم، و أبنائهم و دوابهم .للمزيد ينظر: بوصبيع (ع)، حرب يوغرطة ....المرجع السابق، ص ص 406- 407

41- Mommsen (Th), histoire Romaine , robert Laffont , le club français du livre, paris, 1990, tome 5, p 117. .

42 - حارش(م. الهادي)، مملكة نوميديا ، ....المرجع السابق ،ص48.

43 - يبدو أن ماستانيسوس الذي ورد اسمه عند ششرون، هو نفسه ماساناس و الذي ذكره أبيانوس ، و كان يحكم في المنطقة الغربية من مملكة همبصال الثاني الممتدة من طبرقة إلى صلداي ، و هذا بعد إبعاد شقيقه ماسنتا من الحكم بعد خروجه من طاعة همبصال الثاني. ينظر: حارش (م. الهادي)، مملكة نوميديا.... المرجع السابق، ص 30.

44- بشاري (م. الحبيب)، المرجع السابق، ص 53.

45- حارش (م. الهادي)، مملكة نوميديا... المرجع السابق، ص 27

46-Plutarque , vie de Marius, 40.
47- ibid , vie de pompée, 10

48- بشاري، المرجع السابق، ص 55.

49- نفسه.

50- جايوس يوليوس قيصر: 100- 44 ق.م: ولد في روما ، تعتبر عائلته من أقدم العائلات في إيطاليا من طبقة الفرسان ، لكنها غنية، تزوج من كوريلينا ابنة قيصر الذي تقلد منصب القنصلية أربع مرات ، من أشهر أعماله الانتصار في الحرب الافريقية ضد يوبا الأول ، اغتيل سنة 44 ق.م. ينظر:

Suétone , la vie des douze Césars (César, Octave Auguste, Tibère), publiée par C.L.F Panckoucke, traduction nouvelle par M. DE Golbéry, tome1, paris , 1830, 1, 2, 36, 66…….

51- جايوس بومبي الأكبر: 106- 48 ق.م: لقد قام سيلا بمنحه هذا اللقب إثر انتصاره على أتباع ماريوس في صقيلية ، و إفريقيا سنة 79 ق.م ، و القضاء على تمرد العبيد سنة 71 ق.م ، أصبح قنصلا سنة 70ق.م ، أوكلت له مهمة القضاء على القراصنة في البحر المتوسط ، فبعدما كان حليفا لقيصر رفقة كراسوس ، تحول إلى عداء شديد، انتهى بالقضاء على بومبي سنة 48 ق.م في معركة فارسالوس .للمزيد ينظر:

Plutarque, les vies des hommes illustres , traduit par Didier Ricard, nouvelle édition , tome 10, au bureau des éditeurs, paris, 1829, vie de Pompée, 12- 20- 23- 53- 56- 85. ; Eric D. Nelson , l'empire romaine, préface Janes J. Claus, Marabout, 2008, p 96.

52- يوبا الأول: هو إبن همبصال ، تميز بشغفه بالحروب، كان على خلاف مع ملكي موريطانيا (بوخوس الثاني و بوغود) ، مال إلى أنصار بومبي ضد قيصر .ينظر: يوليوس قيصر، حرب إفريقية 47- 46 ق.م ، ترجمة محمد الهادي حارش، الجزائر ، 1991، فقرات 25- 58…….

53- كاتو الأوتيكي: هو حفيد كاتو الأكبر ، و الذي ارتبط اسمه بتدمير قرطاجة ، تميز بالعند و الطموح ، و كان يقضي بعض الليل في محاضراه مع الفلاسفة ، وقف إلى جانب بومبي ضد قيصر ، عين مسؤولا عن حماية أوتيكا ، و قد انتحر بعد هزيمه أنصاره. ينظر:

Plutarque, les vies des hommes illustres……, vie de Caton d'Utique, 1- 2- 7 -9- 16 - 63- 64- 78.

54- حارش(م. الهادي)، التطور السياسي ……المرجع السابق، ، ص 81.

55 - Carthy (O. Mac), « géographie comparée , et la géographie positive de la guerre d'Afrique , Revue Africa , tome10, , 1866, p p 40- 42.

56 - يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة 02

57- بعد وفاة بوخوس الأول حوالي 80 ق.م قامت روما بتقسيم المملكة بين ولديه، بوخوس الثاني الذي تحصل على الجزء الشرقي ، بينما تولى بوغود الأراضي الموجودة بين وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي. ينظر: كاركوبينو جيروم، المغرب العتيق، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة، المغربية، سلسلة تاريخ المغرب، المغرب، 2008، ص 45.

58 - مملكة يوبا الأول: تمتد جنوب و غرب المقاطعة (الجنوب الساحلي من طبنة حتى أراضي لبدة في الغرب ، و ربما حتى صلداي ، ينظر: حارش (م. الهادي)، التطور السياسي ..... المرجع السابق ، ص 73.

59 - حارش (م. الهادي) ، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر و بلدان المغرب في العصور القديمة ، دار هومة للنشر و التوزيع ، الجزائر، 2013 ، ص 34.

60- يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة 03.

61 - حارش م. الهادي، التطور الساسي....المرجع السابق، ص 82.

62 - روسبينا : هي منطقة هنشير تنير قرب المونستير بتونس الحالية شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 166.

63 – لمطة : هي لبتي الصغرى، تمييزا عن لبتيس الكبرى الواقعة بالسرتين ،كانت تقوم على الجانب الشمالي الغربي لفجوة بحرية واقعة بالساحل. ينظر: أكصيفان أكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ج2، (الدولة القرطاجية) ، ترجمة محمد التازي سعود ، الرباط، 2007، ص 101

64- يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة09.

65 - قيصر، المصدر السابق، فقرة 15.)

66 - كايوس سالستيوس كريسبوس: من مواليد 86 ق.م ، ببلاد الصابين ، ينتمي إلى أسرة من العامة ، درس الادب الاتينية ، دخل ميدان السياسة ، رافق قيصر في حملته على إفريقيا، من أهم مؤلفاته: مؤامرة كاتلينا، حرب يوغرطة، التواريخ . ينظر: كايوس سالستيوس كريسبوس، حرب يوغرطة ، المصدر السابق، فقرات 1- 2.

67 - حارش م. الهادي)، التطور السياسي... المرجع السابق، ص 82

68 – ستيوس بوبليوس: مرتزق روماني، دعم قيصر في إفريقيا ، و هزموا جيوش يوبا الأول، و أنصار بومبي سنة 49 ق.م ، و قد سلمه قيصر جزءا من مملكة ما سينيسا الثاني جزاء المساعدة ، قتل من طرف أرابيون إبن هذا الأخير .ينظر: يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة 25.

69– لقد و حدا ستيوس و الملك بوخوس الثاني قواتهما عندما علما بغياب الملك يوبا عن مملكته، و دخلا إليها و حاصروها ، و استوليا في أيام قليلة على قيرطا .ينظر: يوليوس قيصر ، المصدر السابق

70 – قبائل الجيتول: ظهر هذا الاسم بداية من القرن الثاني قبل الميلاد للدلالة على مجموعة قبلية كبيرة ، كانت حياتهم قائمة على التنقل و الترحال ، يجتمعون ما بين إقليم الجر منت بليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، يذكر بطليموس الجغرافي ان مساكنهم تمتد على ضفاف نهر سباو ، و مساكنهم خلف البحيرة الحمراء بين الاطلس و نهر التنسيفت ، وصفهم سترابون بالشعوب القوية ، ظلت قبائل الجيتول تشكل قلقا مستمرا للرومان. ينظر:

Ptolémée, géographie, édition Muller , 1901, IV, 1 -5. ; Strabon, géographie, XVII, 3 ; tite – live, histoire Romaine, publiée par C.L.F Panckoucke, traduction nouvelle par M.A.A.G .Liez, paris, 1833, livre XXIII, 18.

71 – يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرات 25– 55.

72 – أغار: تقع قرب قصور الساف على بعد 10كلم جنوب غرب المهدية بتونس. ينظر: شارل أندري جوليان، تاريخ شمال إفريقيا، تعريب محمد مزالي ، بشير بن سلامنة ، الدار التونسية للنشر ، تونس، 1969 ، ص 166

73 – يوليوس قيصر، فقرة 75– 76

74 – حارش (م. الهادي)، التطور السياسي.... المرجع السابق، ص83

75 – يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة 48

76 – نفسه ، فقرات 52– 80– 81– 82– 83– 86.

77 – حارش (م. الهادي)، التطور السياسي، المرجع السابق، ص 85

78 – يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة 93

79 – نفسه ، فقرة 95

80 – نفسه، فقرة 94

81- مملكة ماسينيسا الثاني: تمتد مملكة ماسينيسا الثاني من واد ملوية غربا ،إلى الوادي الكبير شرقا . ينظر: شارن شافية و آخرون، الاحتلال الاستيطاني و سياسة الرومنة ، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 67.

82- Graham Alexander, Roman Africa an outline of the history of the Roman occupation of North Africa, Longmans Gren and Co, New York and Bombay, 1902, p 25.

83- يوليوس قيصر، المصدر السابق، فقرة 97.

84 - حارش(م. الهادي، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر و بلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 35

85- Gilbert (M), l'Algérie des origines de la préhistoire à l'avènement de l'islam , édition barzakh, Alger, 2007,59.

86 - شارن و آخرون، المرجع السابق، ص 67.

87 - استغل أرابيون الصراع الذي قام بين حاكمي الولايتين الافريقيتين القديمة و الجديدة ، فشرع في تجميع سلطة الولايتين في يد أحدهما، فكانت بداية المحاولة النوميدية للتحرر، عندما طلب سكتيوس (حاكم إفريقيا الجديدة) يد المساعدة من أرابيون ، و كان مجلس الشيوخ قد جرده كحاكم للولاية الجديدة ، لأنه أعلن انضمامه للحكم الثلاثي المناهض لمجلس الشيوخ ، و قد تحتم عليه الدفاع عن منصبه ضد حاكم الولاية القديمة الموالي لمجلس الشيوخ . ينظر: شنيتي (م. البشير) ، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146- ق.م- 40م) ، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 68.

88 - بعد قيامه بقتل ستيوس ، و قد سبق لأ رابيون الفرار إلى إسبانيا بعد معركة تابسوس سنة 46 ق.م ، و عاد بعد وفاة قيصر إلى نوميديا لاسترجاع مملكة أبيه (شارن و آخرون، المرجع السابق، ص68 .

89 - شارن و آخرون، المرجع السابق، ص68

90 - أصطيفان أكصيل ، تاريخ شمال إفريقيا ، ج 8(يوليوس قيصر، و إفريقيا ، نهاية الممالك الاهلية) ، ترجمة محمد التازي سعود، الرباط، 2007، ص 138

91 – حارش م. الهادي) ، التطور السياسي...المرجع السابق، ص ص 88- 89

92 - أصطيفان أكصيل، ج8، المرجع السابق، ص ص 166- 167

فرحات عباس من عشرينيات القرن العشرين إلى خمسينياتها في زاوية الإدماج مع فرنسا إلى الاستقلال عنها

Ferhhat Abbas from the twenties to the fifties of the twentieth century from the perspective of integration with France to the pursuit of independence from it

بن مصطفى جميلة *

جامعة أبو بكر بلقايد –تلمسان–

djamila2456@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/06/27	2025/07/24	2025/07/31

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى موضوع نضال الدبلوماسي فرحات عباس في فترة عشرينيات القرن العشرين إلى غاية الخمسينيات أي خلال الفترة الممتدة مابين (1920-1959م) والتي تحتل أهمية كبيرة كونها تتناول جانبا من تاريخنا، ولمعرفة هذه الجزئية كان لابد علينا أن نتطرق إلى مسار فرحات عباس في الميدان السياسي في الجزائر في مطلع القرن العشرين والذي كان بمشاركة عدد من التيارات تختلف من حيث قناعاتها الايديولوجية ومتباينة في وسائل عملها وفي طرحها لمعاجة المسألة الوطنية، اذ شهدت ولادة جيل جديد من النخبة الجزائرية المثقفة ومن بينهم الدبلوماسي فرحات عباس والّذي بدأ حياته السياسية عندما كان طالبا، ويعد فرحات عباس أحد أبرز أقطاب هذه التيارات التي امتلكت تنظيمات سياسية والذي صنف في الكثير من الكتابات التاريخية والسياسية كرجل مثقف مثل العديد من النخب التي نهلت وتشبعت من ثقافة الغرب، اذ كان لها وزنا وتأثيرا في مسار الحركة الوطنية، والذي تمكن من تأسيس عدة أعمال منها: جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقبا، ورابطة النواب...،الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، فأصبح مناضل سياسي عنيدا، فطيلة حياته آمن ودافع عن ايديولوجية المساواة أو كما

* المؤلف المرسل

يسميها البعض بسياسة الادماج، إيمانا منه بالمبادئ الديمقراطية حتّى خارج بلاده، وبذلك كانت كل حياته إنما هي قصة البحث عن وطن في فرنسا أولا ثم مع فرنسا ثم خارج فرنسا، بل ضد فرنسا، إلا أنه على طول تلك الطريق ظل وريث بعض التقاليد السياسية الفرنسية، إذ ألح بشدة على زرع بذور الديمقراطية و حقوق الانسان في مناخ لا يتناسب مع مطالبه، وبذلك لم يكن لنداءه صدى أمام فرنسا العجوز.

الكلمات المفتاحية:فرحات عباس؛ الإدماج؛ الإستقلال؛ الإدارة الفرنسية؛ النخبة المثقفة.

Abstract:

This study aims to explore the struggle of the diplomat ferhat abbas during the period the fifties from specifically between (1920-1959) this period holds great significance as it sheds light on an important aspect of our history. In order to understand this part, it is essential to examine the political path of ferhat abbas in Algeria at the brgining of the 20th century, which involved participation in various movemrnts differing in their ideological convictions and in the means they employed to address the national question. This period witnessed the emergence of a new generation of intellectual elites, among them the diplomat Ferhat Abbas, who began his political life as an intellectual—much like many other elites who had absorbed and been deeply influenced by Western culture and who played a significant and influential role in the national movement.He was able to establish several organizations, including the Association of North African Muslim Students, the League of Deputies, and the Democratic Union of the Algerian Manifesto. He became a tenacious political activist who, throughout his life, believed in and defended the ideology of equality—also referred to by some as the policy of assimilation—based on his belief in democratic principles, even beyond the borders of his own country, Thus his entire life was a homeland-first in france, then with france, and eventually outside of france, even against france. However throughout this journey, he remained an heir to certain French political traditions, as he persistently insisted on planting the seeds of democracy and human rights in an environment that was incompatible with his demands. As a results, hi call found no echo in the ears of an aging france.

Keywords: Ferhat Abbas ; assimilation ; independence ; French administration; educated elite

مقدمة:

شهدت الجزائر في مطلع القرن العشرين بدايات نهضة ثقافية ودينية تعبيرا عن رفض الجزائريين المطلق للاستعمار، وتعلقهم بالهوية الاسلامية وتشبّتهم بالأرض الوطنية ثمّ جاءت الحرب العالمية الأولى بانعكاساتها الواسعة، فأكسبت الجزائريّين وعيا وخبرة، فأيقظته من سباته الّذي فرضه عليه الاستعمار وتوابعه من ظلم وفقر وذلّ، إذ أقلقت منظري الاستعمار وقاداته وزعزعت المعمرين وأفسدت عليم أحلامهم خاصّة لأنّهم واجهوا شعبا لا تقلّ جدوره الحضارية وثقافته واعتزازه بوجوده عن مما هو موجود في الحضارة والثقافة الفرنسية، وسط هذا الظلم والفقر نشأت الحركة الوطنية الجزائرية للدفاع عن كرامة الفرد الجزائري وحقه الطبيعي في الحياة، كما كانت هذه الحركة في شقها العسكري والسياسي هي قبل كل شيء وليدة السياسة الفرنسية المبنية على التناقضات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية والثّقافية، إضافة إلى الوعي الجماعي الّذي تكوّن لدى العامّة من الجزائريّين جرّاء الظلم والمعاناة، كلّ هذا وذاك أدّى لمشاركة عدد من النخب الجزائرية في العمل السّياسي والمنتمية إلى تيارت مختلفة من حيث: قناعتها الأيدولوجية ومتباينة في وسائل عملها، وفي طرحها لمعالجة المسألة الوطنية، إذ يعدّ فرحات عباس أحد أقطاب هذه التيارات الّتي تمكّنت من امتلاك تنظيمات سياسية كان لها وزنا و تأثيرا سياسيا في مسار الحركة الوطنية، فكيف استطاع فرحات عباس ان يتخلى عن سياسته الأيديولوجية الإدماجية مع فرنسا في مساره النضالي؟ وكيف اقتنع بالانضمام إلى جبهة التحرير الوطني بعد اندلا ع ثورة نوفمبر 1954م؟

1– نبذة عن الأصول الاجتماعية والأسرية لفرحات عباس:

ينحدر فرحات عباس من أسرة فلاحية كانت تسمّى "بن داوي"، والّتي استقرت منذ قرنين باحد قبائل بلدية الطاهير وهي "بني غافر"، وهي احدى القرى الّتي إقامتها في حدود

سنة 1875م قرب سهول جيجل ،الّتي عرفت توافد كبير من المستوطنين من أصل الزاسي، والّتي أقيمت لتقف ضد القبائل العربية الثائرة ضد المستوطنين، إذ قامت السلطات الفرنسية بتعيين أبو عباس قايد في بلدية الطاهير "أبوسعيد بن أحمد بن عباس"، وأمّه تدعى "عاشورة معزة" والّتي تنمي إلى عائلة فلاحية من قبيلة "غافر عمران"[1]. نشأ "فرحات عباس" في بيت ريفي وسط عائلة تتكوّن من 12 فرد (5ذكور و7 بنات)، إذ حظي كل الأبناء بالتعليم، كما استكمل كل الذكور الدروس في المدرسة الأهلية بالطاهير، ثم في المعاهد والكليات، وكثيرا ما ردد أبوهم أحمد بأن الارث الّذي سيتركه لهم بدون منازع هو العلم، إذ ورث الابن الأكبر منصب أبيه كقايد للدوار، والثاني عمل متصرّف في بلدية الطاهير و"فرحات عباس" صيدلي والأخ الأصغر التحق بكلية الحقوق بجامعة السربون إلاّ أنّه توفي اثر مرض عضال بباريس سنة 1931م، كما تزامنت نشأة فرحات عباس وطفولته مع حصول المستوطنين على الحكم الذاتي من خلا قانون 19 ديسمبر 1900م الّذي أعطى السلطة الكاملة للمستوطنين على الأهالي، إضافة إلى قانون التجنيد الاجباري في شهر فيفري 1912م[2]، ومن أجداده الأولين محمد عباس وابراهيم عباس الّذي ولد في أواخر عام 1680، أمّا جده ووالد أبيه فقد ولد في أواخر القرن 18 وتفي عام 1890م وهو الّذي أصر عام 1881 عندما شرع في تسجيل السّكان في الحالة المدنية على أن يطلق عليهم لقب عباس على اعتبار على أنّه كان بطلا، كما حضر جده نزول الفرنسيين بالجزائر واحتلالهم لها، واشترك في مقاومة جيش الضابط "سانت أرنو" الّذي غزى المنطقة وأحرق قرى الدوار عام 1852، كما حمل جد فرحات عباس السلاح عند اندلاع ثورة المقراني 1871م وشارك في المقاومة والتي كنت لصالح السلطات الفرنسية، وبعد وفاة جده سنة 1690 تاركا وراءه أبناء وبنات منهم والد فرحات عباس والذي قال " لسنا نحن الّذين انهزمنا، ولكن هي بنادقنا التي لم تقدر على مواجهة الأسلحة الفرنسية".

كان فرحات عباس متأثرا بعائلته وخاصة جده وجدته الّي كثيرا ما يذكرها في كتاباته، كذاكرة يستعيد بها فظائع الاحتلال لما كانت ترويه عن بطولات جده الّذي حارب مع قبيلته بن عمران أثناء غزو "سانت أرنو" سنة 1852، كما يفتخر فرحات عباس بدور عائلته في مقاومة الاستعمار مع قبيلة بن عمران أثناء انتفاضة المقراني والشيخ الحداد[3]، كما يعرف عن أبيه الذكاء حتّى أنّه تعلم الفرنسية وجالس العلماء، حيث تعرف على أحد المعمر سنة 1880 الّذي كان مستشارا عاما بجيجل ويملك مزرعة في دوار بالطاهير[4]، حيث اكتسب صداقته واشترك معه في تجارة الحيونات الّتي ساعدته على جمع مبالغ مكنه ذللك من شراء قطعتين من الارض في الوقت الّذي كان الجزائريون يفقدون أراضيهم، كما تدرج أبوه في المناصب لدى الإدارة الفرنسية إلى أن ترقى إلى منصب آغا شرفيا سنة 1928، ولتحوله المادي من خلال دعم الإدارة الفرنسية له، إضافة لارتباطه بالفلاحة فقد استمر في ممارستها بعد أن استأجر أرضا بوادي سقين حتى توفي 1945 عن عمر يناهز 85 سنة وكانت هذه الراحة المادية سببا في تلقي فرحات عباس واخوته التعليم[5].

2- نشأة فرحات عباس ومساره الدراسي العلمي والسياسي من العشرينيات إلى ثلاثينيات القرن العشرين:

مع مطلع القرن العشرين شهدت الجزائر مرحلة جديدة من مراحل المقاومة الوطنية السياسية، خلال هذه المرحلة برزت نخبة من الجزائريين المثقفين ومن بين هذه النخب الإدماجي فرحات عباس الّذي ساهم في الدفاع عن أبناء وطنه بقلمه متأثرا بحالة اخوانه الجزائريين بداية من مساره الدراسي رغم صغر سنه إلى غاية تخرجه مصمما على تحقيق العدالة والمساواة. إذ ولد "فرحات عباس" المكي يوم 24 أكتوبر1899م في بني غافر، حضي بالتعليم في المدارس الفرنسية كون الإدارة الفرنسية عيَنت والده "قايد"في بلدية الطاهير، إذ تلقَى تاريخ منطقته بالطريقة الفرنسية وانتقل من الابتدائية إلى متوسطة سكيكدة، وفي سنة 1918م انتقل إلى ثانوية بقسنطينة وتحصل على شهادة البكالوريا

سنة 1921م وهناك بدأت شخصيته الوطنية كونها منطقة العلم والعلماء الّتي تشهد نشاطا اصلاحيا من خلال العلماء المسلمين، وفي تلك الفترة توجه لأداء الخدمة العسكرية الاجبارية وبعد أداءه الخدمة التحق بمقاعد جامعة الجزائر في كلية الطب في قسم الصيدلة، إذ لم يكتفي "فرحات عباس" بهذا التخصص وإنّما كان يهتم ويحاضر في التاريخ والآداب والحقوق والاقتصاد. كما بدا حياته السياسية شابا عندما كان طالبا جامعيا، وهو من مؤسسي "جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا"...،[6] أصبح "فرحات عباس" مناضلا سياسيا ومهيجا للجماهير وهو من مؤسسي "رابطة النواب"، ويعود سبب تعيينه على هذه المناصب إلى كتابة مقالات سياسية في جريدة "الاقدام" و"همزة" أثناء أداءه الخدمة العسكرية والتي كانت معظمها تعبر عن تطلعات الشباب الجزائري المثقف واصلاح اوضاع الشعب الجزائري، وجلَ هذه الكتابات عبارة عن رد فعل على جريدة (لوطون) التيَ كانت توجه الاتهامات لعناصر الحركة الوطنية بجميع توجهاتها، حيث أنَ اهتماماته بالسياسة جعلته يتأخر في تخرجه من الجامعة وذلك بعد مضي 8سنوات[7].

يمكن القول أنّ الجامعة فتحت ل "فرحات عباس" آفاق واسعة في الميدان العلمي والثقافي والسّياسي، إلى أن فتح صيدلية في سطيف واستقر في تلك المدينة.

3–مؤلفات فرحات عباس:

ألف فرحات عباس عدة مؤلَفات من الجرائد والكتب والمجلات من بينها:

– مقالات الشاب الجزائري بين 1922 و1927 والّتي جمعها فرحات عباس فيما بعد في كتابه "الشاب الجزائر" « Le- geune Algérien » الذي صدر عام 1930م، والذي كتبه بمناسبة الذكرى المائة لاحتلال فرنسا للجزائر.

– جريدة الوفاق الفرنسي الاسلامي« Franco Musulmane L'entente » الّتي تعبر عن تصوّراته للقضية الوطنية في هذه المرحلة، والعلاقة مع

الاستعمار وخاصة مقاله على هامش الوطنية "فرنسا هي أنا" والّتي تمثل محطة أساسية في نضاله السياسي.

ـ جريدة المساواة L'égalité والّتي أصدرها سنة 1944 وهي جريدة تدافع عن البيان الجزائري، وكانت أعدادها قليلة.

ـ جريدة الجمهورية الجزائرية La république Algérienne والّتي أصدرها بعد الحرب العالمية الثانية عقب خروجه من السّجن، والّتي استمرت في الصدور إل سنة 1955 ومقالاتها متعددة وتتلخّص مطالبها بإقامة جمهورية جزائرية متحدة فيدراليا مع فرنسا.[8]

- تقريره إلى المارشال بيتان 1941 بعنوان "جزائر الغد" L'Algérie demain

.

البيان الجزائري Le manifeste du peuple Algérien في وملحقه 1943، والّذي يعتبر نقطة تحوّل هامّة في الفكر السياسي لفرحات عباس.

- "ليل الاستعمار" La nuit coloniale والذي كتبه سنة 1962 بعد خلعه من رئاسة الحكومة المؤقتة وإنتقاله إلى المغرب، وهو عبارة عن مذكرات وإعادة قراءة لتاريخ الجزائر وأهم مراحل نضاله السياسي خلال مرحلة الاحتلال والثورة التحريرية.

- كتاب "تشريح حرب" Autopsie d'une guerre الّذي نشره 1980 والّذي تعرض فيه إلى أهم الأحداث الّتي مرّت بها الثورة الجزائريّة.

- "الاستقلال المصادر" ونشره قبل وفاته سنة 1984م، وخصصه لنقد سياسة الرئيس "بن بلة "و"هواري بومدين".

– "أتهم أوربا" صدر سنة 1944م، وهو عبارة عن مقال يدافع فيه عن بيان الشعب الجزائري وملحقه ويتهم الإمبرالية الرأسمالية الغربية بوقوفها إلى جانب جرائم الاستعمار الفرنسي ضد الجزائريين [9].

4–مسار فرحات عباس النضالي قبل اندلاع ثورة أوّل نوفمبر1954:

بعد أن أنهى دراستة تزوج سنة 1934م من ابنة أحد رواد حركة الشباب الجزائري، إلا أنه بعد استقراره في سطيف تزوج مرة اخرى من طليقة طبيب تدعى "مارسال بيري" من أصل ألزاسي من عائلة كولونيالية رغم معارضة أسرته له، إذ كان يعتبر "فرحات عباس" صيدلي من الدرجة الأولى وكونه من أبناء أعيان الجزائر الذين تربطهم علاقة مع الإدارة الفرنسية تمكن هو وزملاءه من تأسيس "جمعية الطلبة لشمال افريقيا"، إلى أن تمكن سنة 1938م من تأسيس "الاتحاد الشعبي الجزائري" الداعي إلى التحرر السياسي داخل الإطار الفرنسي[10]، ومن مطالبه: المساواة و الحرية السياسية ...، وفي سنة 1939م وعمره أربعون (40) سنة انخرط في صفوف الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا الفاشية إيمانا منه بالدفاع عن المبادئ الديمقراطية حتى خارج بلاده، حيث عاش التفرقة العنصرية بين المجندين الجزائريين والجنود الفرنسيين، هذه العنصرية جعلته يحدد معالم طريق جديدة أفضى إلى بعث تقرير إلى "المارشال بيتان" 1941م متحدثا فيه عن النظام الاستعماري الذي خضعت له الجزائر منذ 1830م، مركزا على سياسة المساواة بين المستوطنين و الجزائريين المسلمين مشدّدا من لهجته مقترحا إصلاحات اقتصادية وسياسية واجتماعية.

في 8 نوفمبر 1942م دخلت الجزائر مرحلة جديدة من تطورها السياسي بفضل وعود الحلفاء (الميثاق الأطلسي و زيارة الرئيس الأمريكي واجتماعه بفرحات عباس) وأمام تعنُت الإدارة الاستعمارية لمطالب "فرحات عباس" كان لزاما عليه أن يختار طريقا أكثر راديكالية أفضى ذلك إلى تحرير البيان (بيان الشعب الجزائري في فيفري 1943م)، وبالتالي انتقل

عباس من الاعتدال إلى الراديكالية في مواقفه السياسية واستطاع في هذا البيان أن يجمع بين أفكار الشعب الجزائري وجمعية المسلمين الجزائريين، إذ كانت مطالبه دولية مسَت شعوب العالم، حيث كانت هذه الوثيقة أول خرق لفكرة الإدماج عند "فرحات عباس" وعلى إثر هذا التبلور السياسي قامت سلطات الإدارة الفرنسية بإيقافه فورا سنة 1943م، وسجن لمدة عشرة (10) أشهر وبعد ثلاثة أشهر من خروجه من السجن أسَس حركة "أحباب البيان و الحرية" في 14 مارس 1944م والتي كانت تهدف إلى جمهورية جزائرية مستقلَة متحدة مع جمهورية فرنسا، إلى أن ألقي عليه القبض سنة 1945م عندما وقعت إبادة 8ماي 1945م ونقل مع الدكتور "سعدان" إلى السجن العسكري بقسنطينة. ولما أطلق سراحه أسَس حركة حزب "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري "في أفريل 1946م، والذي نصَ فيه على اعتراف جمهورية فرنسا للجزائر بسيادتها والاعتراف بالعلم الوطني (05)،كما استقال عباس من البرلمان الفرنسي في سبتمبر1947م وتم انتخابه في البرلمان الجزائري في أفريل (1948_1949)،كما استبدل جريدة "المساواة" بجريدة "جمهورية الجزائر" التي كانت تدافع عن البيان الجزائري[11].

قضى فرحات عباس بدايات نضاله السياسي مؤمنا ومدافعا عن الحرية والديمقراطية معتبرا أن فرنسا رمزا لها والّتي استمدها من ثقافته الفرنسية ومبادئ الثورة الفرنسية سنة 1789، ويدعوا إلى التحرر السياسي داخل الإطار الفرنسي، حيث كان يسعى إلى زرع بذور في مناخ وتربة لا تناسبها، إلاّ أنّها لم تأتي بثمارها ولا بظلالها.

5–موقف فرحات عباس من اندلاع الثورة التحريرية 1954م واهم الاسباب الّتي منعته من الانضمام إلى جبهة التحرير:

جاء موقف "فرحات عباس" وتعليقه على اندلاع الثورة في جريدة الجمهورية الجزائرية الصادرة يوم 12نوفمبر 1954م من خلال مقال له في افتتاحيتها :"نداء إلى الهدوء، إن

الاستعمار هو الذي غذى الاضطراب، الجزائر كما هي سنة 1945م على مأساة كبيرة ...ونؤكد بكل اقتناع أنَ العنف لا يحلُ المشاكل..."، فهو يعترف بأن الاستعمار السبب الرئيسي فيما حدث(اندلاع الثورة)فهو يدعوا إلى التعقل ذلك أن الثمن سيدفعه الأبرياء مثل ما حدث في 8ماي 1945م، ويؤكد في ذلك بأن العنف و السلاح لا يحل المشاكل بل يعقدها وقد رأى "فرحات" في هذه اللحظة أن الإرادة الإنسانية قادرة على زعزعة جمود الاستعمار، وإيجاد حلول في إطار الشرعية الدستورية، فالمساواة وحدها قادرة على تكوين مجتمع[12].

ومن الأسباب التي جعلت "عباس" يتخذ هذه المواقف والامتناع من الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني عند قيام الثورة مباشرة ما يلي:

السبب الأول: لأن فرحات عباس لم يكن يعلم ببداية الثورة ولا بمفجريها، لأن جماعة اللجنة الثورية للوحدة والعمل كانوا يعتمدون السرية التامة في عملهم خوفا من اكتشاف أمرهم كما حدث للمنظمة السرية، ولم يعلنوا عن عملهم المتمثل في إشعال نار الثورة إلا بعد إطلاقها ونشرهم لبيان أول نوفمبر.

والسبب الثاني الذي جعل فرحات عباس يتخذ ذلك الموقف ولا يلتحق بجبهة التحرير الوطني بعد قيام الثورة مباشرة هو مشروعه السياسي الوطني الذي كان يناضل من أجل تحقيقه الذي بدأه منذ الأربعينيات من خلال بيان الشعب الجزائري[13]، وبالتالي ليس من السهولة أن يتخلى عنه ويتحول إلى النضال من أجل مشروع سياسي وطني يختلف عنه فى النهج[14].

6- إتّصال فرحات عباس بجبهة التحرير وانضمامه إلى الثورة:

يذكر فرحات عباس أنّ أوّل اتصال له بجبهة التحرير كان في شهر جانفي 1955 قائلا: "في جانفي 1955 اتصلت أول مرة بجبهة التحرير الوطني عن طريق عمار القامة[15]

وطلبت منه إمكانية الاتصال بكريم بلقاسم أو عمران لتزويده بالمعلومات ، أجابني: حاليا مستحيل وعندما تسمح الظروف سأتصل بهم"

بعد هذا التصريح كان أوّل اتصال مباشر لفرحات مع الثورة في 15 ماي 1955 والّذي كان عن طريق الوسيط نفسه " عمار القامة" الّذي أمره بنقل رسالة إلى كريم بلقاسم وممّا جاء فيها" فرحات عباس رئيس UDMA يؤيد الاتصال بجبهة التحرير في أقرب الآجال" وفي هذه الفترة كان كريم بلقاسم قلقا من مشروع سوستيل والّذي كان الاتحاد الديمقراطي ركنا أساسيا فيه، فكلّف مستشاره السياسي عبان رمضان لاجراء اتصالات مع فرحات عباس والّذي كان في 26 ماي 1955 في بيته بقلب العاصمة بحضور عبان رمضان وعمر ودار بينهم حوار، ومن أهم ما إتّفق عليه الطرفان هو حل حزب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والانضمام إلى الجبهة، على اثر ذلك طلب فرحات عباس مهلة للتّشاور مع أعضاء الحزب الآخرين، كما وعد فرحات تدعيم الجبهة بالمال والادوية[16]، وبعد أيّام قليلة تلقّى عبان حقيبة محمّلة بالأدوية، وبحكم أنّ فرحات كان من الطبقة البرجوازية والسمعة الّتي يتمتّع بها حزبه داخل هذه الأوساط استطاع أن يقدم للجبهة 2 مليون فرنك كما اقنع مناضليه بتوزيع المناشير لصالح الجبهة، كما قدّم فرحات عباس تعهّد شخصيا بالانضمام إلى الثورة، كما ظلّ متمسّكا بإمكانية إيجاد حلّ سلمي لذلك اقترح على عبان رمضان وساطة أخيرة فقال " أعرف أناسا كثيرين في باريس ...امنحوا لي فرصة توقيف هذه الحرب لكلّ الأطراف"[17].

وافق عبان رمضان على اقتراحات عباس، حيث التقى في باريس رئيس الحكومة "ادغارفو" واقترح عليه وضع دستور بإمكانه أن يجعل من الجزائر دولة مشتركة مع فرنسا، لكن هذه الاقتراحات قوبلت بالرفض واللامبالاة من منطق أن المفاوضات الوحيدة هي الحرب، وأن فرنسا قادرة على اجهاض الثورة عسكريا، وفي هذا الإطار اقترح "جاك

سوستيل" اصلاحات سياسية لإطفاء نار الثورة وتهدئة الوطنيين هادفة من ذلك إلى تجريد الثورة من شعبيتها والتّشكيك في المبادئ الّتي تمّ اعلانها في بيان أول نوفمبر[18].

تلت هذه الاصلاحات مباشرة هجومات 20 أوت 1955 والّتي ساهمت في القضاء على آمال سوستيل في عزل جبهة التحرير عن طريق بعض الحقوق للجزائريين بالاعتماد على بعض المعتدلين ومنهم فرحات عباس،[19]إذ جعلت هجومات 20 أوت 1955 مختلف التيارات وإطاراتها تفكر في توعية العلاقات الّتي ينبغي أن تقيمها مع جبهة التحرير بداية بحركة المنتخبين الجزائريين والّتي تسمى بلائحة الواحد والسّتين والّتي .يغت يوم 26سبتمبر 1955 وتمّ الاعتراف فيها مباشرة بأن جبهة التحرير هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري، حيث لعب الاتحاد الديمقراطي دورا كبيرا في صياغة اللاّئحة[20]، على اثر ذلك صرح فراحات عباس لجريدة L'Action التونسية " لا أملك أيّة صفة للتّشاور، ،اعتقد أن فكرة الجمهورية المستقلّة لاتزال قائمة، لكن لن أدافع عنها...إذ لم تفوضني جبهة التحرير الوطني"،[21]وعلى اثر اجتماع UDMA بسويسرا يوم 30 جانفي 1956 توصّل أحمد بومنجل والدكتور فرانسيس إلى اقناع فرحات عباس بضرورة الاعلان الرسمي عن التحاق حركتهم بالثورة استنادا لدراسة ميدانية قاما بها أكدت لهما أنّ 90% من سكان الأرياف التحقوا بالثورة، كما كلّف بمهمة لخصها فرحات عباس في ما يلي[22]:

– تدويل القضية الجزائرية وتحطيم أسطورة الجزائر فرنسية.
-- جلب الدعم المادي والعسكري لجيش التحرير الوطني من أجل رفع معنوياته.

– المحافظة على روح التضامن والوحدة بين ممثلي الثورة في الخارج، وتجنب الانقسامات.

– لا زعامة في الثورة، فالشعب هو السيد وإلا سننتقل من سيطرة إلى سيطرة أخرى.

بعد أن عقد اجتماع في القاهرة بمقر جمعية العلماء المسلمين يوم 26 أفريل 1956 أعلن انضمامه إلى جبهة التحرير رسميا حيث لقي ترحيبا كبيرا من أعضاء وفد جبهة التحرير في القاهرة وخاصة من قبل أحمد بن بلّة[23].

7- الاعلان عن تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة:

تم الإعلان عنها يوم 19 سبتمبر 1958م بالقاهرة، في الطابق الخامس من مقر (جبهة التحرير لشمال إفريقيا) الكائن بشارع عبد الحق ثروت. رقم 32. وقد أحيط "فرحات عباس" بستة من وزراءه، وقرأ بالفرنسية الإعلان عن ميلاد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية [24]، والذي أذيع في نفس عن طريق الإذاعة إلى الشعب الجزائري ومما جاء فيه ما يلي: "تعلن لجنة التنسيق والتنفيذ وبتفويض من المجلس الوطني للثورة الجزائرية عن تشكيل حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية ..."وكانت الغاية من تشكيل هذه الحكومة تحقيق أهداف داخلية وخارجية هي:

داخليا:

- محاولة وضع حل لمشكلة القيادة بتحقيق نوع من الانسجام و التفاهم وتجاوز النزاعات، و محاولة إيجاد حل لنقل و تمرير الأسلحة إلى مجاهدي الداخل وتقوية القدرات العسكرية لجيش التحرير الوطني و مواجهة سياسة الجمهورية الخامسة [25]، ورفع معنويات الشعب الجزائري بتأسيس حكومة وطنية شرعية لمواصلة الدفاع عن القضية الوطنية[26].

خارجيا:

هو كسب التأييد الدولي ومواجهة سياسة ديغول الخارجية، وإعادة بعث الدولة الجزائرية على المستوى الدولي، وأيضا أداة (جهاز)شرعي للتفاوض مع فرنسا ومحاولة جبهة التحرير الوطني الاستفادة من الدعم المادي للدول الاشتراكية[27].

8- اختيار فرحات عباس رئيس للحكومة المؤقتة:

لقد وقع الاختيار على "فرحات عباس" في ترأس هذه الحكومة وذلك راجع إلى:

-كون أنّ "فرحات عباس" كان من المناضلين السياسيين الأكبر سنا، حيث كان يبلغ تسعة وخمسون (59) سنة.

- إضافة إلى خبرته الطويلة في النضال السياسي.

- وعدم ميله لأي تكتل من التكتلات التي كانت موجودة داخل القيادة العليا.

- إضافة إلى قدرته على الاقناع.

إذ ترأس الحكومة المؤقتة الأولى والثانية (19سبتمبر 1958م إلى 27 أوت 1961م). تولى عباس نيابة مدينة سطيف بعد استرجاع السيادة الوطنية، وتم انتخابه أول رئيس لمجلس تأسيسي وقاضيا على أعمال السلطة التنفيذية بما في ذلك السلطة التشريعية غير أنه ما لبث أن قدم استقالته يوم 13 أوت 1963م بعد أن اتهمه "بن بلة" باختراق الشرعية الشعبية للمجلس التأسيسي، و وضع تحت الإقامة الجبرية في فترتي الرئيسين "بن بلة" و"بومدين إلى أن أكرمه الرئيس "الشاذلي بن جديد" وسام المقاومة في أكتوبر 1984م[28].

بعد انضمام فرحات عباس إلى الثورة رسميا وضع حدا للشبهات الّتي استهدفته، كما قطع عن فرنسا ما تتذرّع به من حجج، كما برهن عن تواضعه عندما أقلع عن الساسة البائدة لسياسة الزعامات ورضي القاعدة المطبقة على الجميع بعدما كان يحمل الرّاية الّتي سقطت من الأمير خالد بهدوء ويدعوا إلى العيش بسلام جنبا إلى جنب مع المستوطنين، كما كسبت الثورة بعد انضمام فرحات عباس رجلا سياسيا محنّكا على إطلاع واسع بخبايا الإدارة الاستعمارية.

خاتمة:

يمكن القول أن ثقافة فرحات ثقافة غربية، وإذ كان منهجه علميا في تعامله السياسي حيث كان يرى في مراحله الأول من النضال أن لا مخرج للشعب الجزائري من وضعيته الذي وضعه فيها الاستعمار إلا عن طريق حل واحد وهو الاندماج في المجتمع الفرنسي مع احتفاظه بأحواله الشخصية الاسلامية، إذ لطالما دافع عن القيم الإنسانية واحترام حقوق الإنسان وكرامته، إذ أصبحت الأفكار الديمقراطية جزء لا ينفصل عن شخصيته، فقد واجه الاستعمار بتلك الأفكار و كشف تناقض فرنسا وخبثها الاستعماري وخيانتها لمبادئ الإنسانية.

كما يمكن اعتبار فرحات عباس من الجيل الثاني لحركة الشباب الجزائري الّتي أسسها جماعة الشباب المتمدرسين في المدارس الفرنسية في الجزائر وفرنسا بعدما امتلك قدرة الكتابة وعمره لايتجاوز 30 سنة، هذه المهارة الّتي اكتسبها جعلته يحتل مكانة مرموقة، حيث أصبح يحتل المقام الأول بعد الحرب العالمية الثانية، إذ تمكن من تمثيل العديد من النخب التي نهلت وتشبعت من ثقافة الغرب، والتي تكونت لديه قناعات سياسية حول المفاهيم المحددة لعلاقة الوطن الجزائري بالدولة الاستعمارية إلى أن تدرج إلى فكرة النضال من أجل الانفصال والتخلص من براثين الاستعمار، واضطر إلى الانسحاب من الساحة السياسية الوطنية إلى أن أذاع تلفزيون الجزائر يوم الثلاثاء 24 ديسمبر 1985م وفاة "فرحات عباس"ونقل جثمانه في اليوم الموالي إلى مقبرة العالية حيث دفن في مربع الشهداء.

الهوامش:

1Farhat ABBAS: **La nuit colonial, ed julliard**, Paris, France, 1962, P 109.

[2] علي تابليت: **فرحات عباس، رجل دولة**، ط2، الجزائر، 2009، ص3.

[3] مصطفى الأشرف: **الجزائر الأمة والمجتمع**،تر:حنفي بن عيسى، ط2، المؤسسة الوطني للكتاب، الجزائر، 1983،ص58.

[4] الطاهير: هي إحدى القرى الذي تم بناؤها سنة 1875، قرب سهول جيجل، وقد عرفت هذه المنطقة توافد كبير من المستوطنين من أصل ألزاسي.(ينظر: علي تابليت: المرجع السابق، ص4).

[5] Farhat ABBAS : **Autopsie d'une guerre**, L'aurore, édition, Garnier, France, 1984, P162.

[6] حميد عبد القادر: **فرحات عباس: رجل دولة**، دار المعرفة، الجزائر، 2001، ص 22.

[7] أحمد مهساس: **الحركة الثورية من الحرب العالمية الاولى إلى الثورة المسلّحة**، تر: الحاج مسعود ومحمد عباس، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003، ص 243.

[8] عز الدين معزة: **فرحات عباس ودوره في الحركة الوطنية ومرحلة الاستقلال 1889–1985**، رسالة ماجستير 2005/02/16، جامعة قسنطينة، ص 100.

[9] Charls Julien – André :**Histoire de l'Algérie contomporaine la conquette et les debuts de la colonisation (1827-1871)**, édition Casabah, Alger, 2005, P 45.

[10] وليام ب.كواندت: **الثورة والقيادة السياسية الجزائرية 1954–1968**، مركز الدراسات والأبحاث العسكرية، دمشق، 1981، ص41.

[11] غي بريفيلي: **النخبة الفرنكوفونية الجزائرية 1880**–1962، تر: م، حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 74.

[12] حميد عبد القادر: المرجع السابق، ص 27.

[13] أحمد مهساس: المصدر السابق، ص 243.

[14] رابح لونيسي: **الجزائر في دوامة الصراع بين العسكريين والسياسيين**، دار الجزائر، 1999، ص67.

[15] عمر القامة: هو فرع مسؤول الإتحاد الديمقراطي فرع القصبة السفلى بالجزائر.(ينظر: عبد الحفيظ بوعبد الله: **فرحات عباس بين الاندماج والوطنية (1914–1983)**، أطروحة دكتوراه، جامعة الجيلالي ليابس–سيدي بلعباس، 2016/2015، ص177.

[16] Farhat ABBAS : Autopsie d'une guerre, Op. Cit, P 82-83.

[17] Ibid, P 83-84.

18 محمد لحسن لزغيدي: **مؤتمر الصومام وتطوّر ثورة التحرير الوطني الجزائريّة 1950–1962**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص88.

19 سليمان الشيخ: **الجزائر تحمل السلاح**، تر. محمد حافظ الجيلالي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 203، ص 280.

[20] محمد العربي الزبيري: **الثورة الجزائرية في عامها الأوّل**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص161.

[21]BenjaminSORA-André DAOUD : Histoire de Algérie contomporaine la conquete et les débuts de la colonisation (1827-1871), éditions, Casbah, Alger, 2005, P 241.

[22] Farhat ABBAS: Autopsie d’une guerre, Op. Cit, P 179.

[23] STORA DAOUD : Op.Cit, P 245.

[24] أحمد مهساس: المصدر السابق، ص 250.

[25] أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1956، ص ص 180–182.

[26] شارل روبير أجيرون: **تاريخ الجزائر المعاصر**، تر: عيسى عصفور، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 154–155.

[27] عبد الرحمن بن براهيم العقون: **الكفاح القومي والسياسي من مذكرات معاصرة، الفترة الثانية 1936–1945**، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 180–182.

[28] مولود قاسم نايت بلقاسم: **ردود الفعل الأولية داخليا وخارجيا على غرة أول نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر**، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1984، ص64.

La pénétration française dans le Sahara algérien : « Pacification » et « Œuvre » (Écrits dans la *Revue Africaine*)[1]

التغلغل الفرنسي في الصحراء الجزائرية: "التهدئة" و"الإنجاز" (كتابات في المجلة الإفريقية)

Béarcia Sabah
Université Djilali Bounaama Khemis Miliana- Algérie
s.bearcia@univ-dbkm.dz

Date de soumission	Date d'acceptation	Date de publication
15-05-2025	14-07-2025	31-07-2025

Résumé

En 1905, le capitaine H. Simon écrivait : « l'œuvre civilisatrice se poursuit sans relâche (réseau télégraphique, voie ferrée…) ». Il notait une évolution dans la « question saharienne », marquée par l'établissement de relations qualifiées de pacifiques avec les Touaregs et autres groupes nomades. Mais il reconnaissait également que les débuts furent violents, ponctués de guerres acharnées, de collisions sanglantes et de combats mortels. Ce double discours soulève une problématique essentielle : comment la France a-t-elle justifié sa pénétration dans le Sahara algérien, et dans quelle mesure les populations locales ont-elles réellement bénéficié de ce que l'on appelait alors l'« œuvre civilisatrice» ?

Cette communication se propose d'examiner les mécanismes de l'expansion coloniale française dans le Sahara, en mettant en

lumière les écarts entre le discours officiel et la réalité vécue. L’objectif est d’analyser comment la conquête militaire a été idéologiquement transformée en mission civilisatrice. La méthode adoptée consiste en une lecture attentive d’un corpus de textes français (rapports militaires, récits d’exploration, articles, etc.) publiés dans la *Revue Africaine*.

Les résultats montrent que le récit de la pacification a servi à légitimer la violence coloniale, à masquer les logiques de domination et à marginaliser les voix sahariennes. Les infrastructures mises en place répondaient avant tout à des objectifs stratégiques, et non à une réelle volonté de développement local. L’« œuvre » invoquée se révèle ainsi comme un instrument d’occupation, plus que d’émancipation (de l’ignorance et de l’esclavage…).

Mots clés : Pénétration française ; Sahara algérien ; « Pacification » ; « Œuvre civilisatrice» ; Touareg.

في سنة 1905، كتب النقيب "هـ. سيمون": "إنّ العمل التمديني متواصل بلا انقطاع (شبكة التلغراف، خط السكة الحديدية...)". وقد أشار إلى تطوّر طرأ على "المسألة الصحراوية"، تجسّد، حسب رأيه، في إقامة علاقات وُصفت بالسلمية مع الطوارق وسائر مجموعات البدو الرحّل. لكنه اعترف أيضا بأنّ البدايات اتّسمت بالعنف، ورافقتها حروب شرسة، واصطدامات دامية، ومعارك قاتلة. يثير هذا الخطاب المزدوج إشكالية جوهرية: كيف برّرت فرنسا تغلغلها في الصحراء الجزائرية؟ وإلى أيّ مدى استفادت الساكنة المحلية فعليا ممّا كان يُطلق عليه آنذاك "الإنجاز الحضاري"؟

تهدف هذه الورقة العلمية لدراسة آليات التوسّع الاستعماري الفرنسي في الصحراء، مع إبراز التفاوت بين الخطاب الرسمي والواقع المعاش. ويتجلى الهدف من ذلك في تحليل الكيفية التي تحوّلت بها عمليّة الغزو العسكري إلى مهمّة تمدينية ذات بُعد إيديولوجي. وقد اعتمدنا على قراءة متأنية لمجموعة من النصوص الفرنسية (تقارير عسكرية، سرديات استكشافية، مقالات) نُشرت في *المجلة الإفريقية*.

وتُظهر النتائج أنّ خطاب "التهدئة" أو "Pacification" خدم غرضا تبريريا للعنف الاستعماري، وأخفى آليات السيطرة، وأقصى أصوات الصحراويين. كما أنّ البُنى التحتية التي تمّ إنشاؤها كانت تستجيب بدرجة أولى لحسابات استراتيجية، لا لرغبة حقيقية في تنمية محلية. وهكذا يبدو "الإنجاز الحضاري" المعلن أداةً للاحتلال أكثر منه مشروعا للتحرر (من الجهل والعبودية...).

الكلمات المفتاحية: التغلغل الفرنسي؛ الصحراء الجزائرية؛ "التهدئة"؛ "الإنجاز الحضاري"؛ الطوارق.

Introduction

Pour les Français le mot Sahara est synonyme de désert ; il est même le désert par excellence

Cette communication est la vision de l'armée française du Sahara algérien pendant sa pénétration dans cette mer de sable et la « pacification » qui l'accompagna et « l'œuvre », dite, civilisatrice qu'elle a adopté.

Pour ne pas se perdre dans un débat qui n'a pas lieu d'être, nous n'entreprendrons pas ici de retracer tout l'historique de la pénétration française dans le Sahara algérien. Nous ne retiendrons par conséquent que le ragard des militaires français, sans tenir compte des dépassements de l'armée française pendant cette pénétration, ni de l'indignation de l'opposition française de la métropole face à la répression aveugle qu'ont subit les Sahariens.

Pour comprendre cette pénétration nous ne retiendrons que quelques faits essentiels, susceptibles d'être utilisés pour comprendre le fonctionnement pratique de l'organisation des Territoires du Sud, d'après la dénomination du colonisateur, selon des articles de la *Revue Africaine*, depuis 1856 jusqu'à 1962.

Nous pensons qu'il serait utile d'extraire de quelques numéros, ce qui se rapporte à l'histoire de la pénétration française dans le Sahara algérien, d'après le regard des militaires français. N'ayant ni la prétention ni le temps de coordonner tous les faits et de les soumettre à la critique, et de

faire, en un mot, un aperçu convenablement disposé, nous nous sommes bornés à donner des passages d'articles de cette revue, écrits par des Français ; soit des militaires ou en lien étroit avec l'armée française en Algérie.

Peut-on se demander, alors, est-ce que, vraiment, la « pacification » était pacifique ?

Ont-ils donné un regard des plus noirs des Sahariens ?

L'« œuvre » civilisatrice a-t-elle profité aux Sahariens ?

1. Frontières et topographie

En 1859, la frontière septentrionale de l'Algérie était délimitée et indiscutable, alors que la frontière du Sahara algérien semblait vague et sujette à controverse. Les géographes-conquérants ont prétendu qu'il n'y a pas de frontière de ce côté et qu'elle s'étendait même jusqu'au cap de Bonne espérance en Sud Afrique[2].

Il faut savoir que le Sahara n'est ni désert ni stérile, puisqu'on y rencontre des oasis et de nombreuses populations pastorales. Il forme en réalité une vaste dépression orographique (reliefs) entre le bourrelet sud des hauts plateaux algériens et l'immense massif du djebel Hoggar dont les ramifications s'étendent de la Tripolitaine à l'oued Saoura, dans une direction oblique entre le 25° et 27° Latitude Nord. Au fond de cette large dépression et à des distances variables des soulèvements qui la limitent, se trouve une véritable mer de sable, c'est la région des grandes dunes ou des *Areg*[3]. Ces *Are*g qui ont parfois des centaines de kilomètres d'épaisseur sont à peu près impraticables, sauf par de rares passages (l'*Ighargar*, l'oued *Mya*, vallée de *l'oued Nsaoura*…). Hors de ces trois grandes routes (*Hamada* ou *Areg*), dont le sol est en nature de roc ou de gravier résistant, il n'existe à travers les sables que des sentiers à peu près impraticables aux caravanes et fréquentés seulement par les courriers, les bergers et les bandits[4].

En 1904, Noël Villatte (1872-1932), calculateur à l'observatoire de *Bouzaréa*, ancien membre de la mission

(1898-1900) Foureau-Lamy (1850_1914), se rend d'*Ourgla* à *In-Salah* par une route qui n'a pas encore été relevée, traversant directement le *Tadmaït* de *Hassi-Inifel* à *Ain-Guettara*. Après un court séjour au *Tidikelt*, Villatte accompagna le commandant Laperrine (1860-1920) dans sa tournée chez les Touareg au cours de laquelle il fit sa jonction, à *Timiaouin*, avec un détachement venu du Niger, et s'avança jusqu'au puits de *Tin-Zaouaten*, situé par 19°45 Latitude Nord et 10° Longitude EstVillatte releva les coordonnées astronomiques de 43 points de cet itinéraire et évalua de nombreuses altitudes au moyen du baromètre anéroïde. « C'était notre zone d'influence, la limite méridionale du Hoggar »[5].

2. Population

Pour les Français, de la 2ème moitié du 19ème siècle, les *Sahriens* préféraient l'existence murée dans leurs masures des *ksour*[6]. Au nord des *Areg*, vivaient « nos nomades algériens » avec leurs troupeaux de chameaux. Ils avaient des puits. Au sud des *Areg*, du Fezzan à l'Adrar Atlantique les quatre grandes confédérations des Touareg, dont ; les Toureg *Azgar*, à l'est, les Touareg Hoggar au centre et à l'Ouest. Ils s'avancaient parfois dans les *Areg* jusqu'à la rencontre « de nos nomades sahariens »[7].

On préconisait une « bonne solution » qui consista à faire une équitable répartition des populations sahariennes entre les colonies françaises, laissant à l'Algérie les Touareg du Nord et à l'Afrique occidentale ceux du sud. La limite à tracer devrait être déterminé d'après les parcours de ces nomades[8]. Cette répartition aura, après les indépendances, des conséquences graves jusqu'à nos jours.

Le premier souci des Français était d'assurer la sécurité dans leurs colonies de l'Afrique du Nord. Cela exigeait qu'ils soient les maitres du *Sahara*, tout en sachant qu'il faut le prendre pour ce qu'il vaut. « Il faut en être maître à peu de frais ». Ils

préconisaient dans ces pays une administration d'une extrême simplicité[9].

3. « Pacification »

La « pacification » est un terme généralement accolé aux guerres coloniales menées par les Européens à travers leurs empires ultramarins. Une analyse diachronique permet de mesurer la complexité de ce terme. Nous ne nous attarderons pas sur l'analyse diachronique du terme malgré son importance, mais on peut dire que « pacification » rime avec « violence légale », ce qui veut dire que les Européens imposaient par des campagnes, dites de « pacification », leur présence par tous les moyens[10].

Le colonel Corneille Trumelet (1817-1892), officier et historien militaire, disait que « nous sommes l'histoire, et que l'honnêteté de l'historien ne peut s'établir que par l'exactitude, l'impartialité, la sincérité ». Il critiquait « l'éloge banal et uniforme qui, trop souvent, a été la règle de nos bulletins », et reconnut que l'armée d'Afrique, au cours de son récit sur l'insurrection des Ouled-Sidi-Cheikh, « malheureusement, nous n'avions pas à enregistrer que des succès, ou ce que nous appelons volontiers de *belles affaires*. Nous avons pensé que notre armée d'Afrique, assez riche d'ailleurs de sa vraie gloire, n'avait rien à perdre dans cette méthode d'exposer les faits, qu'ils eussent été heureux ou malheureux »[11]. Cet aveu ne concerne nullement les colonisés, mais il est destiné au colonisateur, pour tirer les leçons des ses insuccès.

3.1. Raisons de la « pacification »

- Trumelet qualifie le sud comme le berceau des insurrections. Pour avoir la tranquillité et le calme dans le *Tell*, il fallait avoir le pied sur « la poitrine des Sahriens »[12]. Il ne croyait pas, en 1864, à la possibilité d'une insurrection dans le *Sahra*, « on s'y reposait si tranquillement, si *françaisement* sur

la foi des traités, qu'on n'avait pas même songé à entourer le village de Djelfa (village européen) d'un simple retranchement pour en défendre les approches… mais, un beau jour, l'insurrection a grondé dans le Sahra ; les Ouled-Naïl, sont devenus insolents et se sont donné des airs indiquant de mauvais desseins »[13].

- Pour Louis Rinn (1835-1909), Juriste et officier, la « pacification » devait faire justice des bandits et des coupeurs de route. « Le dévouement à la science et à la grandeur de la France fait planer les ombres de Charles Norbert Dourneau-Duperré (1845-1874), mort à Agharghar (Algérie), tué par des nomades Chaâmba, …des pères blancs, de Flatters (1831-1881), tué ainsi que ses compagnons à Bir-el-Garama (nord est de Tamnrasset) par les Touareg, comme tant d'autres qui ont jalonné la route en tombants martyrs ». Il s'étonne, en 1886, ainsi que d'autres « esprits ardents et réfléchis que la France, en possession de tous les engins de force, de vitesse et de destruction dont dispose la civilisation moderne, n'est pas fait justice de quelques bandes de coupeurs de route, sans nationalité et sans cohésion, qui ont mis « le blocus » sur les frontières méridionales de l'Algérie ». Il met en avant le rançonnement quotidiennement, sans merci ni pitié, des milliers de *Ksourriens* « sympathiques et travailleurs, dont l'affranchissement politique, religieux et commercial préoccupe »[14].

- Pour Le Chateleir (1855-1929), Capitaine d'infanterie, il fallait venger le sang français versait « par cette bande sur notre territoire, grâce à la complicité des Châamba et du Souf de Ourgla, d'El-Goléa, qui l'a composaient presque entièrement, rend nécessaire, vis-à-vis de ces tribus, une rigueur impitoyable dans l'avenir ». De tels événements étaient l'indice d'une situation fâcheuse sur la frontière méridionale…Il fallait frapper un coup retentissant dans le Sahara, pour faire expier au Touareg-*Ahaggar* le massacre du colonel Flatters. C'était même

l'un des plus urgents à tous égards pour inspirer aux Sahariens respect de la domination française, et « faire l'exemple même des Medaganat[15] montre combien il serait facile d'obtenir ce résultat, en utilisant le concours de nos tribus du sud… Le plus sûre moyen d'obtenir de nos tribus si turbulentes du Sahara une obéissance qui leur pèse, est de leur prouver notre force, en les défendant contre leurs ennemis naturels qui sont les nôtres, et auxquels notre indifférence à leur égard les a plus d'une fois décider à se rejoindre »[16].

Enfin, l'ingérence des Français dans les affaires du Sud porta un coup fatal à l'industrie de certaines tribus, tels les gens de *Ben-Hammed* (razzia) ; ne pouvant se défaire entièrement de leurs anciennes habitudes, et « l'on est toujours sûr de leur voir prendre des actions dans les affaires d'eau trouble. C'était précisément un motif de cette nature qui nous amenait devant leur ksar »[17] en 1864.

3.2. Causes des révoltes :

Nous venons d'énumérer quelques raisons de la « pacification ». Nous allons voir, ci-dessous, les raisons des révoltes des Sahariens contre les armées françaises, d'après le point de vue du colonisateur.

- La principale cause « c'est que nous sommes l'ennemi, l'instrument du châtiment ». Et comme dans tous les soulèvements possibles, il y a des mécontents, des intrigants, des ambitieux, des puissants tombés ou écartés du pouvoir, ne pouvant se faire à l'obscurité et espérant ressaisir leur pouvoir sous un autre drapeau.

- Ajoutons l'amoindrissement de la situation des grands au profit des gens de zaouïa.

- Aussi, la tendance des colonisateurs à réprimer les tentatives d'indépendance des grands seigneurs *sahriens*[18], obligé de respecter la loi commune en affaiblissant les vieilles habitudes féodales archaïques. On peut citer encore le besoin pour certains

chefs « indigènes » de refaire des situations financières très compromises par le recours aux usuriers.[19].

Citons enfin, de l'aveu même de Trumelet, l'application, « un peu brutale quelquefois, de la loi française à des chefs indigènes pour des faits qualifiés crimes ou délits par notre code, et qui, aux yeux des Arabes, ne sont que de la razia en grand, et que son objet est de dépouiller le prochain ; soit de quelque portion de son territoire, soit de ses valeurs monnayées ».

- Sans oublier l'entrainement, la contagion de l'exemple, la communauté d'origine et de foi religieuse, « la cause de l'islam à défendre ». Prenons l'exemple de l'insurrection de 1864, parmi les causes cités nous trouvons : l'opportunisme, l'amour de la poudre et des aventures, la passion du butin et l'impossibilité de résister à tout [20].

3.3. Stratégie de la « pacification » :

Avec l'extrême mobilité des *sahriens*, il était impossible, pour les colonnes de l'armée françaises de prévoir ou elle serait le lendemain. La guerre dans le Sud, ne pouvait se faire qu'au jour le jour et par improvisations[21].

Du reste, dans le *Sahra*, ne vainc pas par les armes mais par la fermeture aux rebelles à l'accès de leur pays ; « la misère les mettra bientôt à la merci du général Vantini dit Yusuf (1808-1866) qui n'aura pas exténué ses troupeset ses chevaux à la vaine poursuite d'un insaisissable ennemi »[22].

Il faut savoir que l'ennemi restait imperturbablement sur une position, remplissant le but qu'il se propose, n'avait que deux l'alternatives ; se soumettre ou mourir, eux et leurs troupeaux, de faim et de soif[23]. Mais, il faut reconnaitre qu'on menaçant les révoltés, s'ils persistaient dans leur « aveuglement », les officiers français savaient bien qu'ils n'étaient point en état de leur infliger par l'effet des armes, et qu'ils seraient bien heureux de leur accorder le pardon lorsque la faim et la soif les obligeraient à venir le demander[24].

Prenons un exemple. À la date du 31 mai 1864, le général Deligny (1815-1902) était à *Ain-'l-Orak*, entre Géryville (El Bayadh) et *El-Abiodh-Sidi-Chikh*. Les *Sahriens*, se voyant enlever les eaux par le commandant de la division d'Oran, paraissaient avoir renoncé à la lutte, et, dès lors, ils avaient fait quelques offres de soumission. Il était évident que la misère pesait sur eux ; leurs troupeaux mouraient littéralement de faim et de soif. Comble de malchance, le Sud moyen ne pouvait, à cette saison, leur présenter aucune ressource. « En fermant aux rebelles la région des eaux et des fourrages, on les a amenées inévitablement à composition ; mais gardant nous de remonter vers le nord avant d'avoir obtenu totalement ce résultat »[25].

Ainsi, les *Sahriens* sauront que les Français sont « forts, indéracinables, et que lutter contre nôtre domination, c'est folie »[26].

Reconnaissant que l'insurrection (juin 1864) était rageante dans la province d'Oran : elle trainait misérable et , sans ressources sur les ruisseaux (*r'dir*) desséchés de l'oued *Zergoune* (Ghardaïa), et sur les puits ensablés de Sud moyen. Il ne restait plus « qu'as maintenir cette situation pour mettre la rebellion aux abois »[27]. Évidemment, ce rôle d'expectation ne plaît pas aux soldats français ; une expédition sans coups de fusil, ce sont les misères de la guerre sans compensations : « pour eux, pas de sang, pas de gloire ! …nos soldats sont toujours … des nécessiteux d'honneur, de cet honneur que donne la gloire, et, nous le répétons, pour eux, il n'y a pas de gloire quand le pistolet reste à la ceinture et la lame dans le fourreau »[28].

Ce n'est qu'en 1900 que s'accomplit l'occupation de tout l'archipel touatien (Adrar). Le colonel d'Eu (1848-1911) avait établie la domination française au *Tidikelt* (région d'In-Salah), après avoir dû emporter d'assaut, le 19 mars 1900, les *kasbas d'in-Rhar*. Une deuxième colonne s'avença vers la Saoura et s'établit à *Igli* (Bni-Abbas) sans trop de mal, le 5 avril, coupant

les communications de la région touatienne avec le Maroc. Un troisième groupe occupa Timmimoun, la localité la plus importante du Gourara, le 25 mai. Enfin, au mois d'aout, le général Servière (1842-1921) traversa le Touat et reçut, en passant, la soumission de tous les *ksour* de cette région[29].

3.4. Le prix de la « pacification »

Cette « pacification n'était pas toute rose pour le camp français et encore moins pour le camp saharien. Trumelet reconnait que ces coreligionnaires avaient partagé avec les Sahariens leur terre, alors qu'ils auraient pu tout leur prendre, prétextant que selon la loi même des Sahariens, la terre appartient au vainqueur[30].

3.4.1. Côté français

Pour ceux qui doutaient que la guerre dans le *Sahra* était comme la guerre conventionnelle, il est plus qu'important de les convaincre qu'elle « est la chose la plus misérable, la plus pénible, la plus fatigante, la plus énervante, la plus irritante, la plus abrutissante, la plus férocement périlleuse, la moins entrainante, la plus dépourvue de stimulants qu'on puisse imaginer ; c'est celle dans laquelle il faut dépenser le plus de dévouement, le plus d'abnégation, déployer le plus d'énergie et de force morale, le plus d'amour de la patrie »[31]. Des mots forts qui reflètent la dureté de la situation des soldats français dans le Sahara.

Cette situation s'explique par les conditions naturelles du *Sahra* ; ours brulants, nuits glaciales, eaux salées et bourbeuses, marches harassantes dans les solitudes ensablées, tempêtes brulantes. La terre pour couche, le biscuit pour s'alimenter et le mouton comme eternel régime. Tout cela sans une bataille avec les insurgés. Et malgré ces supplices, ces épuisements, on entendait des rires, des railleries contre la mauvaise fortune, « tout le bagage, enfin, de cette bonne vieille philosophie française qui prend ses appuis sur l'amour de la gloire et sur la

religion du drapeau ». Ces qualités précieuses hantaient et empêchaient même les soldats de voir qu'ils marchaient sans souliers, que leurs vêtements étaient en lambeaux, qu'ils avaient faim et soif. « Merci…. Vous faites œuvres de géants avec la simplicité de l'enfant… qui avait montré au monde entier vos uniformes, vos drapeaux, vos corps encloqués ; fous divins qui combattez dans le feu… gardez précieusement vos croyances, vos enthousiasmes, votre chauvinisme enfin, et la France sera toujours la nation forte, puissante et respectée »[32].

Malgré l'enthousiasme, le chauvinisme, l'amour de la patrie… les colonnes françaises étaient affaiblies ; soit par la températures irritantes des étés *sahriens*, ou par les froids perçants des nuits glaciales de l'hiver, ou par les privations de toute nature : mauvaises conditions de l'alimentation et couchage rudimentaire. Ajoutons les longues et fatigantes marches dans *halfa* ou sur le sol fuyant et aveuglant des sables ; journées sans fin aux monotones horizons, « sans autres visages de civilisés que les nôtres et rien que les nôtres ». C'est insuffisant, et peu de satisfactions au combat : le *Sahrien* est un ennemi qui glisse entre les doigts, habile et impitoyable des fautes des officiers français. Restons avec l'exemple de l'insurrection des *Ouled-Sidi-Cheikh*, entre 1864 et 1866, années sanglantes, qui ont donné la preuve que les calamiteuses leçons vécues dans le *Sahra* n'ont pas servi de leçons pour les Français ; « nous avons fait l'expérience à nos dépens que la discipline, les savantes manœuvres et les armes de précision des civilisés n'ont pas toujours raison du désordre, des combinaisons primitives, des fusils à canons de fer-blanc, des couteaux ou des triques de la barbarie »[33].

En mars 1866, les pertes humaines n'étaient pas considéréables, les morts considérés comme des martyrs. Ils étaient « ceux de la civilisation qu'a embrassée la France il y a 36 ans, et dont elle poursuit le triomphe avec sublime et

chevaleresque générosité qui est dans les traditions de notre pays »[34].

Les militaires français ont assez fréquemment fait la guerre dans le *Sahra*. Ils reconnaissent qu'ils n'y étaient pas toujours heureux. Mais ils savaient aussi que les insuccès et les désastres, dans cette guerre d'Afrique, ont toujours été la conséquence de fautes militaires ; premièrement l'inobservation des principes généraux ou des règles particulières qui constituaient la science des combats. Deuxièmement, l'importance de tenir compte, selon le génie ou la tactique du peuple qu'ils combattaient. « Ces règles sont d'autant moins à négliger ici que l'Arabe est loin d'être un ennemi à mépriser »[35].

3.4.2. Côté saharien

Pour évaluer le prix de la « pacification » côté saharien, qui est très loin du prix côté français, d'après les écrits des Français eux-mêmes, dans la Revue Africaine, donnons quelques exemples.

Ksar El Richa (*Laghouath*) qui était habité par une faction des *Ouled- Yacoub-er-Rabaa*. Après une bataille avec une colonne de l'armée française, ils se sont réfugiés à *Gâda* (plateau) d'*Anfous*. Alors que la colonne s'approchait du plateau, Ils demandèrent l'aman. En présence des officiers chargés par le général de porter sa réponse aux rebelles, les femmes, fait curieux, au lieu d'exciter, ainsi qu'elles le font habituellement, les hommes à la résistance, leur auraient reproché amèrement, au contraire, d'avoir attiré sur elles et sur leurs enfants les maux de la guerre. « Soumettez-vous, criaient-elles aux hommes, soumettez-vous aux Français ! Avec eux, la paix, la tranquillité, le bien-être ! Avec les autres, -vous le savez- la guerre et ses misères, nos villages incendiés, nos jardins détruits, nos troupeaux mourants de faim et de soif !... Mais vous avez donc été frappés de démence !... Nous le savions et nous vous l'avions dit : les Français sont aussi forts qu'ils sont justes, et vous ne pouviez espérer de triompher des

forts, puisqu'ils sont le bras de Dieu ! Soumettez-vous, ô hommes ! et ne vous plaignez pas si les conditions que vous impose notre seigneur le général sont dures et sévères, car la faute en est tout entière à vous »[36].

Plus curieux encore, ces femmes étaient nostalgiques d'un certain *Mouni*[37]. Elles le réclamaient même : « Tout cela ne serait pas arrivé si l'on nous avait laissé *Mouni* ! … qu'il revienne au milieu de nous, dussion-nous l'acheter !... ». Lé général, était conscient que s'il refusa d'accepter la soumission du *Djebel-'l-Amour*, c'était montrer à ces populations que cette guerre était une guerre démusurée et d'extermination, et ainsi les pousser au désespoir et à tous les excés qu'il entraine[38]. Mais il fallait leur donner une leçon.

Alors, le chatiment était impitoyable. Les hommes criaient, les femmes pleuraient et suppliaient, la voix aigue des enfants se mêlait au sifflement des balles, les bœufs mugissaient, les moutons bêlaient, « concert infernal et terrible ou l'on sent que la mort doit faire sa partie… le village était livré aux flammes, et l'épaisse fumée qui s'elevé lentement de ce fouillis d'ordures et d'impurtés apprenait aux fuyards de Ben-Hammad que nous pouvions les atteindre »[39].

Tableau glaçant. Avec *les Bou-Hammad*, Français et cavaliers de *goum*, passaient au milieu des morts, des débrits, pour menaient leurs chevaux à l'abrevoir, tout en sifflant, en chantonnant. A gauche, le village en flammes ; sous un soleil de feu qui calcine (les morts et les vivants), une odeur de poudre, du sang, des cadavres, … C'était affreu. Pour explication aux soldats sur les raisons qui l'ont motivé, le général répondait: « Le ksar de Ben-Hammad (Tiaret) ayant été de tout temps un repaire de malfaiteurs, et sa population ayant, dernièrement encore, causé la ruine de nombreux colons et indigènes par le sac du village de Chellala et le vol de ses troupeaux, les gens de Ben-Hammad viennent d'être chatiés

avec toute la rigueur que comportent les circonstances actuelles »[40].

Un autre exemple de la « pacification », côté saharien. Après une bataille, quelques cadavres et des blessés de rebelles jonchaient sur le terrain du combat ; ces blessés l'étaient tous mortellement. Il eut été humain de mettre fin à leurs souffrances ; mais les soldats de l'armée française étaient mal disposés, à ce moment, pour un comportement humain à l'égard de leurs « sauvages et féroces ennemis : ils se vengèrent en laissant la vie à ceux qui ne pouvaient échapper au trépas ; ils voulaient qu'ils eussent tout le temps de gouter à la mort. Quant à leurs funérailles, c'est un soin qu'ils laissaient aux hyènes et aux oiseaux de proie »[41]. Mais après les guerres acharnées qui ont marqué, au début, la prise de contact avec les Sahariens, qualifiés de demi-sauvages. Après les chocs sanglants, il s'est produit une remarquable évolution dans la question saharienne. Évolution caractérisée par l'établissement de relations « amicales » avec les populations éparses à travers le Grand Désert, principalement avec les divers groupes de Touareg et avec les Maures du nord du Sénégal. Il semble que ce soit l'occupation d'In-Salah (1900) qui ait déterminé le mouvement de « pacification » qui venait de s'achever, pour H. Simon, qui était certain que les Français pourraient devenir les maitres par la force, « viennent à nous (les gens de l'Ahnet (région d'In-Salah), les Ifoghas (sud Algérie et nord Mali) non pas en vaincus implorant le pardon, mais en adversaires qui reconnaissent la valeur de la leçon reçue et qui acceptent simplement la réconciliation offerte »[42]. Seulement, la réalité historique est toute autre.

Les militaires français employaient tous les moyens pour gagner la soumission des Sahariens. Il y a des « indigènes qui n'ont gagné à notre contact que l'amour immodéré de l'absinthe et des autres spiritueux de la civilisation ». Ceci, dans l'espoir qu'ils se dégoutent de l'existence spartiate des *Sahriens*, et que

la passion pour la liqueur leur insufflerait de faire la soumission, et de demander *l'aman*[43].

3.5. Résistance :

Les Algériens du Sahara, malgré leur infériorité en armement, leur inexpérience dans l'art de la guerre, ils ont résisté à l'occupant, avec acharnement, le forçant quelques fois au respect de ses adversaires.

Les Français ne comprenaient pas comment les Sahariens dès qu'ils rencontraient un chef d'un certain charisme, et encore pas nécessairement, qui les auraient appelé à la révolte, ils étaient prés à le suivre. Cela malgré les forces dont disposait l'ennemi, pour une raison simple ; le désir le plus ardant, le plus farouchement nourri, le plus constant est de voir les Français repasser la mer. Ils attendaient, ils espéraient ce moment de toute la force de leurs aspirations, et ils ne doutaient pas que ce moment de la retraite des « mécréants » arriverai un jour ou l'autre, quand Dieu trouverai que leur châtiment est suffisant, et qu'il jugera bon de leur rendre leur terre de l'islam occupée par les «koufar ». Il faut reconnaitre qu'enfin il n'y a rien de commun entre les Sahariens et les Français, malgré des décennies d'occupation[44].

Trumelet a reconnu, en 1879, que le colonisateur n'est maître que du côté de la mer. Avouant que les population *islamites* algériennes étaient d'autant plus difficilement vaincues et soumises, et celle du *Sahra* surtout, que les Français, par rapport à elles, étaient dans une singulière et dangereuse situation d'assiégé[45].

Il explique cette situation dont la cavalerie *sahrienne* est l'heroïne. Une cavalerie qui était toujours absolument maitresse de ses mouvements ; « comme nous ignorons toujours ou elle est, et qu'elle sait toujours ou nous sommes, elle nous attaque à son heure, quand elle le veut, et sans que, dans aucun cas, il puisse jamais en résulter un bien grand dommage pour elle. Du

reste, le rôle de ces merveilleux cavaliers n'est point de combattre mais d'harceler »[46].

Cela a fait de l'Arabe *sahrien* un ennemi qui n'a jamais été complètement vaincu, qu'il ne l'a été que partiellement, et qu'il n'a été point d'ennemi plus tenace, plus patient, plus irréconciliable. Quand il essuya un échec sérieux, et qu'il vit ses ressources très compromises, il restait en repos et se refit[47].

Il devenait urgent, alors, de s'opposer à la contagion insurrectionnelle (*Ouled-Sidi-Chikh*) qui menaçait de se communiquer à tout le Sud algérien. Puisque « nous n'avions pas réussi à nous attacher les populations sahriennes par les bienfaits, il y avait lieu de tenter un autre moyen pour les maintenir dans l'obéissance et nous étions nécessairement obligés de nous souvenir que les 1200 morts[48] de Laghouat[49] nous avaient donné 12 années de paix et de tranquillité »[50].

Après une incursion de *Sid El-Ala*[51], Trumelet reconnait que c'était un coup de main qui eut suffi pour illustrer un général français. il a reconnu à ce chef des rebelles une certaine valeur militaire, un instinct de la guerre peu commun et une rare habilité à profiter « de nos fautes… l'homme des grands espaces… de quarante-cinq ans, dans toute la force de l'âge…entraineur d'hommes : vigueur physique, grand courage personnel.. de l'audace et de la résolution. Ces qualités étaient soutenues et alimentées, chez cet ardent marabout, descendant de l'illustre et saint chérif Sidi Ech-Chikh (1544-1616), par un fanatisme n'admettant aucun compromis, et par une ambition sans bornes »[52].

Complétons cette « pacification » (côte saharien) par la razzia qu'a mené (30 mars 1866) une colonne de l'armée française contre la tribu des *Ouled-Sidi-Brahim*,facilité par l'absence de ses cavaliers qui étaient sorti pour une expédition contre les Français. Ceux de *Ouled-Sid-El-Hadj-Ahmed*, revenus la veille seulement dans leurs campements, ont opposé une vive résistence aux *goums*[53] des *Harar* et du *Djebel-el-*

Eumour ; mais sans succés, malgré un combat des plus acharné[54].

Le 18 février 1901, la garnison de *Timmimoun* eut à repousser l'attaque d'un nombreux parti de *Beraber* du Tafilelt. Le 28 février et le 1er mars, le général Servière dut livrer combat à ces mêmes *Beraber*, aidés de quelques *ksouriens*, qui voulaient lui interdir l'accés du village de *Charouin*… les *Beraber* s'enfuirent à travers l'*Erg* et le *ksar* capitula… après le 9 mars de cette année la paix fut complète dans les oasis[55].

Après cette « pacification », seuls les Toureg *Azdher* et quelques groupes des *Hoggar* conservent leur indépendance sans faire toutefois acte d'hostilité. Cette situation particulière s'explique par la trouée qui existe dans l'Est entre les postes des territoires du Tchad et ceux des territoires du sud de l'Algérie[56].

Après une résistance acharnée, dont on a donné des exemples, il fallait se rendre à l'évidence. Les français ont vaincu les Sahariens et se sont adaptés à leur façon de guerroyer. Alors « L'œuvre civilisatrice » **(**voir infra) a poussé de nombreux groupes de Sahariens à venir faire leur soumission ; les *Beni Guil*, dans une entrevue solennelle, à *Ain Sefra*, au mois de janvier 1904, affirmèrent qu'ils voulaient vivre en paix avec le colonisateur. Les Touareg de l'*Ahnet* et du *Hoggar*, l'*amenokal* Moussa *ag Amastan* (1867-1920) vint en personne à *In Salah*, accompagné de 70 de ses guerriers[57].

4. « Œuvre civilisatrice »

Il existe une idée reçue qui véhicule que « La colonisation a apporté la civilisation aux peuples colonisés ». La France coloniale a été, dans l'empire, promotrice d'un projet de civilisation[58]**.**

Cette idée diffusée par la presse et les revues, de l'époque (2ème moitié du 19ème siècle), la « France algérienne » commençait, à peine, à être mieux connue après des décennies de la conquête, avec des exagérations malencontreuses et

indifférentes aux enseignements du passé, des conditions géographiques, politiques et économiques, proposer des mesures inutiles, et parfois même néfaste aux intérêts de l'Algérie. « Rappeler les traits principaux de cette histoire, définir les exigences spéciales du pays, indiquer les moyens de tirer le meilleur parti possible de nos efforts et de notre argent, tel est le but de cette étude »[59].

Pour certains Français, trop de distance séparait les deux civilisations pour espérer, que les « indigènes » musulmans, arrivent à rejoindre la civilisation européenne, véhiculée par la vapeur et l'électricité[60].

L'exploration et la connaissance du *Sahra*, construction des routes impériales, raccordements des lignes électriques et forage des puits artésiens, ont couté aux « valeureux soldats de hardiesse, de témérité, d'abnégation, de confiance absolue… »[61].

Prenons quelques exemples :

4.1. *Laghouath* :

Détruite en 1852, déjà en 1864, on ne la reconnaissait plus. Le vieux *ksar* que les français appelaient la capitale du désert. Ces deux premiers commandants supérieurs, les chefs d'escadrons Du Barail (1820-1902) et Margueritte (1823-1870) (généraux de brigade en 1864), soutenus par le maréchal Gouverneur-Général comte Randon (1795-1870) ont transformé cette cité, qui était délabrée, écornée, boueuse, infecte[62]. Elle s'est métamorphosée en une ville franco-orientale, à laquelle le mélange de ses constructions donne un cachet tout particulier : « c'est la France entrée sur l'Orient ». Ses fortifications, qui autrefois consistaient en deux grandes tours carrées bâties sur les points culminants de la crête, et auxquelles se rattachaient les murailles, ont été remplacées par une bonne et solide enceinte défendue à l'est et à l'ouest par le fort *Morand*[63] et par le fort *Bouscaren*[64].

Douze ans après l'assaut (1864), la ville, étendue lentement dans son hamac de verdure, prenait jour après jour des charmes nouveaux, et pouvait, à juste titre, se dire la capitale de désert[65].

4.2. Primes (oreilles):

Au début de la colonisation, les oreilles se payaient jusqu'à deux dourous la paire. Avant qu'on ait introduit dans les mœurs des cavaliers « indigènes » (spahis) cette méthode aussi humanitaire ! que commode, pour l'opérateur, de payer les oreilles, on ne primait que les têtes. Trop radical c'est vrai, mais en ces temps on ne peut nier que ce ne fut une garantie sérieuse pour se retrouver dans les rangs opposés de l'ennemi qui avait subi cette opération. On imagina donc de transporter la prime des têtes sur leurs accessoires, les oreilles et tout le monde fut satisfait[66].

4. 3. La traite:

Même si la conquête française a détruit l'esclavage en Algérie, il a fallu néanmoins de longues années pour le faire entièrement disparaitre de l'extrême sud où le commerce des nègres a continué, parfois, à se faire encore à l'insu des autorités coloniales[67].

Dans une lettre au ministre de l'instruction publique on peut lire que la conquête française a détruit l'esclavage en Algérie, mais « il faudra de longues années pour la faire entièrement disparaitre de nos possessions de l'extrême sud ou le commerce des nègres continue, parfois, à se faire encore à notre insu »[68].

L'abolition de l'esclavage fut réalisée pour l'Algérie par le décret du 27 avril 1848, commenté par les instructions ministérielles des 24 mai et 12 aout. Le terrain étant malgré tout préparé et aucun problème économique et social d'envergure ne se posant (sauf pour les Touareg), les choses se passèrent sans trop de difficultés et, pour ce qui est du Sud, avec une sage lenteur[69].

Le 27 janvier 1858, des Mozabites d'Alger protestent contre les autorités qui ont saisi à Boghari (Ksar El Boukhari), dans

une de leurs caravanes, 3 nègres et 18 jeunes négresses, leur causant un préjudice considérable… comment pourra-t-on vivre s'il n'est pas permis d'aller chercher des esclaves en pays haoussa (nord du Nigéria et sud du Niger) ou il n'y a d'autre à échanger contre les produits du Tell[70].

L'une des raisons données pour l'annexion en 1882 de cette région, soumise mais non occupée depuis 1853, et enclavé dans des possessions françaises, était d'empêcher cette traite. Il y avait alors dans la pentapole 327 esclaves et 961 affranchis. Tous furent affranchis[71].

Déjà, en 1872, il y'avait une colonne expéditionnaire à Ouargla, le général Lacroix a rendu la liberté à plusieurs esclaves. Une mesure humanitaire qui avait porté ses fruits, en conséquences, d'autres esclaves étaient venus spontanément sous la protection des Français[72].

C'est vrai que la loi de 1831 ne concernait que la traite maritime ; mais celle de 1848 menaçait de la perte de la nationalité française, mais elle laissait indifférents les Touareg ; un décret du 12 décembre 1905 concernait l'A.O.F.[73] et le Congo. Charles Jonnart (1857-1927), Gouverneur Général de l'Algérie, demandait des textes précis, rendus nécessaires par la pénétration saharienne. Laperrine souhaitait des peines claires, légères mais rapides. Loin de s'opposer, le droit musulman était d'accord, puisqu'il punit la vente de personnes libres. Le décret du 15 juillet 1906 fixa donc des peines pour toute vente, chat, importation, exportation d'esclaves dans et hors des Territoires du Sud. Le 22 janvier 1907, Laperrine écrivit au Gouvernement Général qu'il avait conseillait à Adrar *Baba ag Tamaklast*, chef des toureg *Kel Rela*, …et lui avait conseillé de devenir gendarme au lieu de voleur, lui faisant valoir qu'il gagnerait autant à protéger les caravanes qu'à les voler. Le commandant des Oasis suggérait de transformer les Touareg en douaniers d'un genre particulier et de les intéresser à la libération des esclaves[74].

Mais il faut savoir qu'il y avait des personnes qui avaient d'autres projets. En 1841, le baron Jean Jaques Baude (1792-1862) notait que la traite fait « permettre aux chrétiens d'avoir des esclaves, christianiser ceux-ci, marier des noirs à des blancs pour former « une belle et forte race » qui pourrait être « un excellent contrepoids à opposer aux indigènes »[75].

4. 4. Agriculture, eau et commerce

Les Français, conscients qu'il fallait garder l'ordre établi dans la relation entre le Sahara et le *Tell*, le relation de dépendance dans laquelle se trouvaient les *Sahriens* par rapport « aux maitres » du Tell, il fallait toujours qu'ils sentent qu'ils ont besoin du colonisateur. La colonisation s'arrêtait à la ligne de ceinture du Tell (véritable partie des céréales) et il ne fallait surtout pas encourager la charrue européenne à pousser ses jusqu'au-delà de Djelfa[76].

Par contre pour les palmiers, le Sahara en produits d'excellents. Un forage a été exécuté (fin 1904) à *Temassinin*[77]. Une nappe artésienne, rencontrée à la profondeur de 20 mètres, a donné un débit de 160 litres à la minute. L'eau courante a été immédiatement utilisée pour des plantations de palmiers[78].

En 1905, les Oasis prospèrent. Des puits artésiens ont été creusés au *Tidikelt* ; les *foggaguir* (galeries souterraine servant à l'irrigation, au Sahara) ont été refaites partout. Les cultures se développent et les relations commerciales interrompus depuis longtemps, renaissaient. Il vient à *In-Salah* et au Touat des « indigènes » de Gabès, de Ghadamès, de l'Aïr (Niger), de Tombouctou, de l'*Azaouad* (nord Mali), du *Tadjkant* (Mauritanie, Mali) ; ces caravaniers apportent des peaux, du beurre, ils amènent des moutons et des chameaux ; ils prennent en échange des dattes et des produits manufacturés[79].

4. 5. Travaux :

Il est difficile de trouver dans le *Sahra* de la province d'Alger de cette époque un nom plus populaire que celui de cet officier général de division Margueritte, tué en 1870 à Sedan Trumelet

raconte que tous les *Sahriens* parlaient de *Gr'itt* avec admiration, et déjà ses exploits cynégétiques circulaient dans le désert avec le merveilleux et l'intérêt de la légende. Les Arabes vantent aussi sa justice pleine de calme et de sagesse de son commandement. Ils le louaient après d'avoir exigé d'eux certains travaux qui leur ont amené le bien-être, et que, pourtant, ils n'exécutèrent que par la contrainte et avec répugnance. En effet, à chaque pas, dans le cercle de *Laghouath*, on rencontre une création et une amélioration, et quand on demande aux Arabes quel en est l'auteur, ils ne manquaient pas de répondre : « C'est Gr'itt ». Dans un pays ou tout est à créer, « il serait à désirer qu'on trouvât beaucoup de commandants supérieurs possédant au même degré que le général Margueritte son initiative intelligente, sa science du faire faire, et son influence sur les indigènes »[80].

En 1900, la voie ferré du sud oranais fut poussée jusqu'à *Djenien-bou-Rezq*[81] (Naâma). Le 31 aout 1901, le chemin de fer de pénétration du Sud Oranais fut ouvert jusqu'à Duveyrier (1840-1892) (Beni-Ounif à Béchar), en vue de l'oasis marocaine de Figuig dont les habitants, avec un grand sens commercial, profitèrent immédiatement des avantages que leur offrait ce nouveau mode de communication. Un décret du 17 décembre 1896 avait autorisé l'entrée en franchise de certains produits destinés à travers le territoire algérien pour se répondre dans le . Ces produits étaient les sucres provenant de l'industrie française, le café, le thé, les épices et les huiles minérales[82].

En 1904, la voie ferrée fut poussée jusqu'à *Ben Zireg* (Béchar) qu'elle atteignit au milieu de novembre. Des lignes télégraphiques furent construites jusqu'à *Taghit* et à Colomb[83] (commune chef lieu de Bécher).

4. 6. Justice

Les Territoire du Sud, pays du paradoxe où n'étaient en vigueur ni la séparation des pouvoirs (chère aux Français de la métropole), ni le partage des compétences entre la justice

militaire et la justice de droit commun (exceptions du code de l'indigénat !), ni même les principes de la fiscalité moderne[84].

La justice criminelle dans le Sahara était organisée suivant des règles qui semblaient paradoxales aux yeux des Français. Elleétait e par des principes opposés à toutes les conceptions classiques. Réunir et confondre en une même main les pouvoirs administratifs et une partie des pouvoirs judiciaires ; la compétence des autorités chargées de la répression était fixée non pas par la définition légale des infractions, mais par la décision que prend l'une de ces autorités ; pour des infractions identiques, commises dans les mêmes conditions, les civils étaient jugés par un tribunal militaire et les militaires par une juridiction pénale de droit commun[85].

Les « *indigènes* » militaires sont justiciables des tribunaux de droit commun et les « *indigènes* » civils sont justiciables des tribunaux militaires. n'étaient[86]

Les individus justiciables du tribunal militaire sont les musulmans non admis à la qualité de citoyen français et les étrangers musulmans, poursuivis pour crimes et délits dans toute l'étendue des Territoires du Sud[87]. « »[88]

Conclusion

Cette communication avait pour ambition d'exposer le regard du colonisateur français porté sur le Sahara algérien, en s'interrogeant sur l'intérêt des colonisateurs pour une région désertique.

Il a fallu dans un premier temps définir les limites, préciser la population, examiner la « pacification » et « l'œuvre » et sélectionner quelques exemples.

La conclusion s'impose, après les quelques exemples dévoilés très succinctement. Ils permettent de déduire que le Sahara était une terre ou vivre était un défi au quotidien, ou les relations humaines étaient basées sur la solidarité entre tribus amies

De plus, nous avons cherché, par les mêmes écrits, les Algériens, en vain. Nous les avons trouvé qualifiés par les Français comme des poussières de tribus, qui razziaient, qui coupaient les route.. Mais aussi c'était des combattants harceleurs, cavaliers merveilleux, reculaient pour mieux attaquer, ne se soumettaient qu'après d'âpres batailles, ce qui a obligé les Français à un certain respect malgré leurs mépris des Sahariens.

Ce travail se voulait principalement historique. Comme on le voit c'est le travail d'un compilateur. Le but était de mettre au jour le regard des Français porté sur le Sahara et les *Sahriens*,

Pour conclure, après les quelques-unes des « vérités » historiques dévoilées très succinctement. La « pacification » n'avait rien de pacifique et « l'œuvre » civilisatrice, ne pouvant la nier comme chercheur, mais force est de constater qu'elle a profité au colonisateur plus qu'aux Sahariens.

Quand à notre question sur la partialité des signataires des articles, ils étaient, pour les Algériens, partiaux dans leur propos, mais pour les militaires et les Français de l'époque, ils étaient impartiaux d'après leur vision de colonisateur, et non pas d'après la « vérité » historique. Ils leur manquaient l'objectivité du chercheur, l'intégrité de l'humain et l'audace du juste.

C'est en essayant de lever le voile sur le passé et ses non-dits, qu'il est possible d'apporter des éléments utiles au débat. Le passé fournit incontestablement d'utiles enseignements et dissimule maintes énigmes qui, décodées, pourraient aider à comprendre le présent et donc à améliorer la conduite et aller sereinement de l'avant.

L'Histoire nationale forge la conscience des futurs citoyens de tel ou tel pays en les invitant à se montrer dignes de leurs glorieux prédécesseurs.

Une Histoire sans tabous oriente son regard sur le présent et le futur afin d'ouvrir des voies pour l'avenir.

[1]) La *Revue Africaine* est la porte-parole la *Société Historique Algérienne*. Elle fut fondée en 1856 dans le but de recueillir, étudier et faire connaître, par des publications tous les faits qui appartiennent à l'histoire de l'Afrique ; surtout ceux qui intéressent l'Algérie, depuis l'époque Libyque jusque la conquête française et même au delà. Voir August Cherbonneau, « Statuts de la Société Historique Algérienne : but de la société », in Revue Africaine, Volume 14 : 1870, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine, Challamel Aîné Libraire, Paris, 1870, p.7.

[2]) Adrien Berbrugger : « Des frontières de l'Algérie », in Revue Africaine, volume 4 : 1859-1860, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1860, p. 403.

[3]) Nous n'avons changé la transcription des mots algériens (berbères et arabes) trouvée dans chaque article de la Revue Africaine cité, d'où la différances entre certaines transcriptions d'un même mot. Les termes dont la transcription n'est pas répandue sont en italique.

[4]) Louis Rinn : « Nos frontières sahariennes », in Revue Africaine, volume 30 : 1886, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1886, p. 163.

[5]) H. Simon : « Revue des questions sahariennes », in Revue Africaine, volume 49 : 1905, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1905, p. 251-252.

[6]) Colonel Corneille Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864 », in Revue Africaine, volume 21 : 1877, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1877, p. 5.

[7]) Louis Rinn : Op. cit., volume 30 : 1886, p. 163.

[8]) H. Simon : Op. cit., volume 16 : 1905, p. 257.

[9]) Ibid., volume 16 : 1905, p. 256.

[10]) ***Jean-François Klein : La « pacification », un processus impérial (XIXe-XXe siècles) , in EHNE : Encyclopédie d'Histoire Numérique de l'Europe, Sorbonne Université, sur le lien :*** https://ehne.fr/fr/encyclopedie/***, consulté le 03/06/2024.***

[11]) C. Trumelet : « Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869 », in Revue Africaine, volume 27 : 1883, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1883, p. 145.

[12]) Même : « Notes pour servir à l'histoire…en 1864», volume 21 : 1877, p. 2-3.

[13]) Ibid., volume 21 : 1877, p. 2.

[14]) Louis Rinn, Op. cit., volume 30 : 1886, p. 161.

[15]) Pour Le Chatelier se sont quelques Chaâmba révoltés, ce qui restait des compagnons de Bou Choucha (qui s'est insurgé contre le colonisateur. Arrêté en 1874, exécuté en 1875) et ses derniers fidèles. Formant une « bande de pillard sous le nom de Medaganat », ils ont été célèbres par « des exploits légendaires ». Voir Alfred Le Chatelier : « Les Medaganat », in Revue Africaine, volume 30 : 1886, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1886, p. 39.

[16]) Ibid., volume 31 : 1887, p. 131.

[17]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 22 : 1878, p. 368.

[18]) Nous rappelons que nous avons gardé la transcription des mots algériens (berbères et arabes) telle quelle.

[19]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 22 : 1878, p. 248.

[20]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 23 : 1879, p. 248-249.

[21]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 20 : 1876, p. 375.

[22]) Ibid., volume 20 : 1876, p. 375.

[23]) Ibid., volume 20 : 1876, p. 376.

[24]) C. Trumelet C. : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 24 : 1880, p. 91.

[25]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 22 : 1878, p. 283-284.

[26]) C. Trumelet C. : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 22 : 1878, p. 286.

[27]) Ibid., volume 22 :1878, p. 292.

[28]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 20 : 1876, p. 376.

[29]) H. Simon : Op. cit., volume 49 : 1905, p. 244-245.

[30]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 23 : 1879, p. 254.

[31]) Ibid., volume 27 : 1883, p. 143.

[32]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 22 : 1878, p. 385-386.

[33]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 26 : 1882, p. 329.

[34]) Ibid., volume 26 : 1882, p. 186.

[35]) Ibid., volume 26 : 1882, p. 162.

[36]) Ibid., volume 22, 1878, p. 222-223.

[37]) Le lieutenant Mounier, ancien commandant de l'annexe d'El-R'icha. Trumelet affirme que ce lieutenant avait su faire chérir son commandement pendant la période qu'il passa au *Djebel-'l-Amour*, et on l'y regretta vivement quand cette annexe fut supprimée. Voir C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 22 : 1878, p. 223.

[38]) Ibid., volume 22, 1878, p. 223.

[39]) Ibid., volume 22, 1878, p. 370.

[40]) Ibid., volume 22, 1878, p. 372.

[41]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 26 : 1882, p. 181.

[42]) H. Simon : Op. cit., volume 49 : 1905, p. 254-255.

[43]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 24 : 1880, p. 17.

[44]) Ibid., volume 23 : 1879, p. 251-252.

[45]) Ibid., volume 23 : 1879, p. 253.

[46]) Ibid., volume 23 : 1879, p. 324.

[47]) Ibid., volume 26 : 1882, p. 457.

[48]) L'assaut de la ville a tourne au massacre. Selon des etudes, le nombre des tues etait entre 2.300 et 3.000. Voir Didier Monciaud : « « Laghouat 1852 » : Memoires, debats et reconnaissance d'un massacre de la colonisation de l'Algerie », in Cahiers d'Histoire : revue d'histoire critique, sur le lien https://journals.openedition.org/chrhc/21484, consulter le 03/06/2024.

[49]) En 1852, pour ecraser un soulevement, l'armee coloniale française, forte de 6 000 hommes et sous le commandement de trois generaux : Aimable Pelissier (1794-1864), Joseph Vantini *(dit « Yusuf »)* (1808-1866), citer plus haut, et Henri-Pierre Bouscaren (1804-1852), assiege Laghouat. La bataille commence le 21 novembre. Le 4 decembre, Laghouat est prise d'assaut. Les massacres durent plusieurs jours et n'epargnent personne : les combattants, les femmes, les enfants, les vieillards. Plus des deux tiers des habitants perissent dans des conditions insoutenables. Les estimations font etat de 2 500 morts. Voir « Collectif : Un collectif d'historiens et de militants : il faut restituer « la cle et les etendards » de Laghouat pour renforcer les « liens de solidarite entre les peuples algerien et français » », in Journal Le Monde, 16 fevrier 2023, sur le lien : https://www.lemonde.fr/idees/article/2023/02/06, consulte le 04/06/2024.

[50]) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 20 : 1876, p. 286.

[51]) Ben Boubeker (Ouled Sidi Sheikh) (décédé une année après sa soumission en 1895).

[52]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 24 : 1880, p. 328 et p. 327.

[53]) Il est indéniable que les grands succès des colonnes françaises dans le *Sahra* est dû au *goum* de cette région…notamment depuis le commencement de l'insurrection (1864)…. Mais il faut reconnaitre qu'il y avait des stimulants (butin)…. Dans toute guerre, les alliés- ceux surtout qui sont disposés à faire le gros de la besogne- ne sont jamais à dédaigner. Pour être un peu machiavélique peut-être, ce principe n'en est pas moins bon à retenir en Afrique. Voir Ibid., volume 27 : 1883, p. 63. Après la prise de *Laghouath*, et pendant les huit premiers jours, « on exécutait par paquets de douze ou quinze ceux qui s'étaient rendus. Quelqu'un s'est même plaint que les sabres des spahis qui ont fait ces sanglantes exécutions ne coupaient pas.”. Voir Didier Monciaud, Op. cit. Voir aussi page suivante.

[54]) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 26 : 1882, p. 323. Les deux tribus étaient, habituellement groupées autour du chef des *Ouled Sidi-El-Chikh-el-R'eraba* ; *Sidi-El-Chikh Ben-Eth-Thaiyb* (d.c.d. en 1870), au nord de Figuig, sur le teritoire marocain. Voir Ibid.

[55]) H. Simon, Op. cit., volume 49 : 1905, p. 245.

[56]) Ibid., volume 49 : 1905, p. 255.

[57]) Ibid., volume 49 : 1905, p. 248.

[58]) Christelle Taraud : « La colonisation a été une œuvre civilisatrice au service des peuples. », in Idées reçues sur la colonisation : La France et le monde : XVIe-

XXI[e] siècles, Le Cavalier Bleu Éditions, Paris, 2018, sur le lien https://www.cairn.info/idees-recues-sur-la-colonisation, consulté le 07/06/2024.

59) Louis Rinn : Op. cit., volume 30 : 1886, p. 162.
60) C. Trumelet : Notes pour servir… de 1864 à 1869, volume 23 : 1879, p. 255-256.
61) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 21 : 1877, p. 340.
62) Du point de vue de l'armée française, elle était pareille à Hercule, est extrêmement purificatrice. Elle apportait la civilisation dans les plis de son drapeau aux peuples chez lesquels elle porte ses armes. En plus, elle se charge de nettoyer leurs capitales (Alger, Ancône, Rome, Constantinople…, Athènes, Saigon, Beyrouth….). « Nous craignons que notre manie de nettoyer n'enfante la spéculation chez les peuples malpropres de provoquer des *casus belli* pour nous attirer chez eux ». Voir C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 21 :1877, p. 12.

63) Commandant Morand tué dans l'assaut de *Laghouath* en 1852.
64) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 21 :1877, p. 11-12. Général Henri Pierre Bouscaren (1804-1852). Blessé mortellement pendant le siège de *Laghouath*.

65) Ibid., volume 21 : 1877, p. 80.
66) Ibid., volume 22 :1878, p. 297-298.
67) Charles L. Féraud: « Délivrance d'esclaves nègres dans le sud de la province de Constantine (Lettres à M. le Ministre de l'Instruction publique) », in Revue Africaine, volume 16 : 1872, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1872, p. 167.

68) Ibid., volume 16 : 1872, p. 167.
69) E. Dermenghem : « Les confréries noires en Algérie (Diwans de Sidi Blal) », in Revue Africaine, volume 97 : 1953, A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1953, p. 317.

70) Ibid., volume 97 : 1953, p 317.
71) Ibid., volume 97 : 1953, p. 314.
72) Charles Féraud : Op. cit., volume 16 : 1872, p 167.
73) Colonies de l'Afrique de l'Ouest Françaises.
74) E. Dermenghem : Op. cit., volume 97 : 1953, p. 319.
75) Ibid., volume 97 : 1953, p. 316.
76) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 22 :1878, p. 374.
77) Son nom actuel est Bordj Omar Driss. L'oasis est à 370 klm au sud de Hassid Messaoud et à 700 klm au nord de Tamnrasset. Voir Le responsable de l'agence InJaren Voyages à Djanet, Forts de Sahara de l'Ouest : Fort Flatters, sur le lien http : //saharayro.free.fr/bordjs/fortsc23.htm, consulté le 04/06/2024.
78) H. Simon : Op. cit., volume 49 : 1905, p. 252.
79) Ibid., volume 49 : 1905, p. 256.
80) C. Trumelet : Notes pour servir….. en 1864, volume 21 : 1877, p. 5-6.
81) H. Simon : Op. cit., volume 49 : 1905, p. 245.
82) Ibid., volume 49 : 1905, p. 245.

[83]) Ibid., volume 49 : 1905, p. 248.

[84]) René Drouillat: « La justice Pénale dans les Territoires du Sud », in Revue Africaine, volume 81 : 1937 (2), A. Jourdin Libraire-Éditeur, Alger- Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine- Challamel Ainé Libraire, Paris, 1937, p. 198..

[85]) Ibid., volume 81 : 1937 (2), p. 196.

[86]) Ibid., volume 81 : 1937 (2), p. 198

[87]) Ibid., volume 81 : 1937 (2), p. 200.

[88]) Ibid., volume 81 : 1937 (2), p. 205.